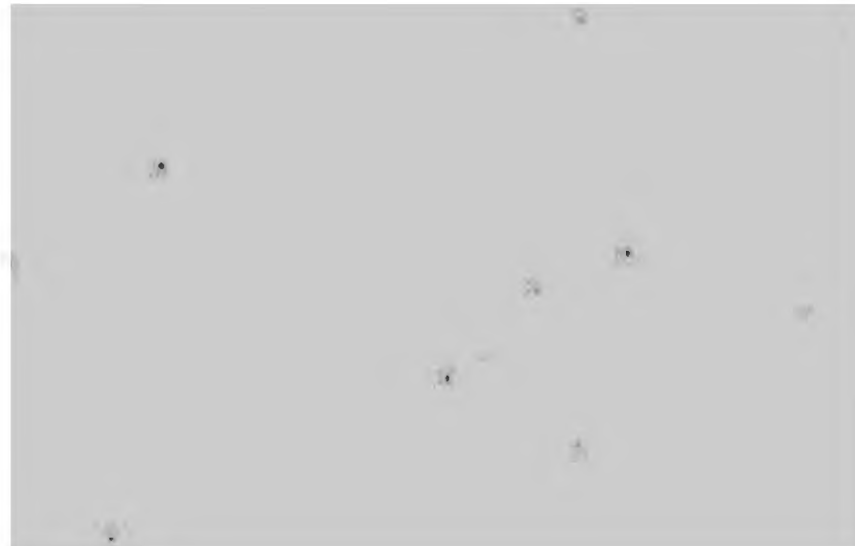


رجعة أبي العلاء

تأليف
عبدالله بن محمد الهادي



مقدمة الطبعة الثانية

علامات الخلود

ثلاث علامات من اجتمعن له كان من عظماء الرجال . وكان له حق في الخلود :

فرط الإعجاب من محبيه ومريديه . وفرط الحقد من حاسديه والمنكرين عليه . وجو من الأسرار والألغاز يحيط به كأنه من خوارق الخلق الذين يحار فيهم الواصفون ويستكثرون قدرتهم على الأدعية . فيردون تلك القدرة تارة إلى الإعجاز الإلهي . وتارة إلى السحر والكهانة ، وتارة إلى فلئلت الطبيعة إن كانوا لا يؤمنون بما وراءها .

وهذه العلامات الثلاث مجتمعات لأبي العلاء على نحو نادر في تاريخ الثقافة العربية . لا يشركه فيها إلا قليل من الحكماء والشعراء . فهو في ضمان الخلود منذ أحبه من أحب . وكرهه من كره . وتحدث عنه من تحدث كأنه بعض الخوارق والأعاجيب .

بسم الرحمن الرحيم

بلغ من منزلته بين مريديه أن وقف على قبره نيف وثمانون شاعراً يرثونه بعيد وفاته . فكان بلاغ قولهم مطلع قصيدة لأحدهم - أبي الفتح الحسن بن عبد الله بن حصينة - حيث يقول :

العلم بعد أبي العسلا مضيق والأرض خالية الجوانب بلقع (١)

وهو مثل من أمثلة الإعجاب الذي اتفق عليه أولئك الشعراء . وكانوا فيه ترجماناً لمئات . أو ألوف من المعجبين . لم ينظروا الرثاء ولم يقفوا على ثراه ..

(١) بلقع : الأرض القفر .

وبلغ من إنكار حساده والجاهلين به أنهم جعلوه من أهل الجحيم .
والخنوة بأحق ما يسب من الحيوان . واستجملوه غاية الجهل . وأنهموه
في فهمه وذكائه ! ..

قال رجل وقد عمر به : من هذا الكلب ؟ فقال أبو العلاء : الكلب من
لا يعرف للكلب سبعين اسماً ! ..

وذكر يافوت بعض كلامه في معجمه ثم قال : كان المعري حماراً
لا يفقه شيئاً ، وإلا فالمراد بهذا بين ! ..

وسئل عنه علي بن الحسن المعروف بشعم وهو من نخبة القسرين
الساسة . فغضب وقال لسانه ناهراً : ويلك ! كم تسمى الأدب بين يدي ؟
من ذاك الكلب الأعمى حتى يذكر بين يدي في عدي ؟ ! ..

وهناك أناس استعظموه ولكنهم لم يفهموه ولا حققوا عليه ! وحسبوا
أ قدرة الإنسان لا ترتقي هذا المرتقى ، وأن سر بني آدم لا يخفى هذا
الحناء ، فألخنوه بعالم المجهول ووصلوا بينه وبين سيطرة الفلك وقضاء
الأقدار ..

قالوا إن محمود بن صالح صاحب حلب أتبعه بالزندقة فأمر بعمله إليه
من المعرة ، وبعث حسين فارساً لحملوه ، فدخل عليه همه مسلم
ابن سليمان وقال يا ابن أخي ! قد نزلت بنا هذه ، الحادثة فإن منعناك
عجزنا ، وإن أسلمناك كان عاراً علينا عند ذوى الدمام ، ويركب تنوخ اللد
والعار ، فقال أبو العلاء : هوّن عليك يا هم ! ولا بأس عليك ، فل
سلطان يدب عني . ثم قام فاغتسل وصل إلى نصف الليل . ثم قال لغلامه :
انظر إلى المريخ أين هو ؟ فقال في منزلة كنا وكذا .. فقال زنه واضرب
نخته وتدا ، رشداً في رجلى خبطاً وأربطه إلى الوند . ففعل غلامه ذلك .
وسمعه وهو يقول : يا قديم الأزل ؟ يا علة العلل ! يا صانع المخلوقات
والموجد الموجودات . أنا في عزك الذي لا يرام . وكنتك الذي لا ينصام ..

الضيوف الضيوف ! الوزير ! ثم ذكر كلمات لا تفهم .. وإذا بهذة
عظيمة ! فسأل أبو العلاء عنها فقبل : وقعت الدار على الضيوف الذين
كانوا بها ففتلت الحسب .. وعند طلوع الشمس وقعت بطاقة من حلب
على جناح طائر : لا تزعجوا الشيخ فقد وقع الحمام على الوزير .

ومن لم يكن عندهم ساحراً أو قديساً من ذوى الكرامات كان بخارفة
من حوارى التكوين أو طرفة من طرف الزمان ..

رووا عن تلميذه أبو زكريا التبريزي أنه كان قاعداً في مسجده بمعرة
النعمان بين يدي الأستاذ يقرأ عليه شيئاً من تصانيفه . وكان قد أقام عنده
سنتين لم ير أحداً من أهل بلده . فدخل المسجد بعض جيرانه فرآه وعرفته
فتغير من الفرح وأحس أبو العلاء بشيء . فسأله : أين أمراك ؟ فحكى له
ما رآه ..

قال أبو زكريا فيما رووا عنه : فقال لي أبو العلاء : قم وكلده ! فقلت :
حتى أتمم السياق . فقال : قم . أنا أنتظر لك . ففعلت وكلمته بلسان
الأذربية - أهل أذربيجان - شيئاً كثيراً ، إلى أن سألت عن كل ما أردت .
فلما رجعت وقعدت بين يديه قال لي : أي لسان هذا ؟ قلت : هذا لسان
أهل أذربيجان . فقال لي : ما عرفت اللسان ولا فهمته . غير أني حفظت
ما قلنا . ثم أعاد عليّ اللفظ بعينه . من غير أن ينقص عنه أو يزيد عليه
لجميع ما قلت . فتعجبت غاية التعجب ! كيف حفظ ما لم يفهم ؟ ..

وحدث أبو الحسن الدقني المصفي الشاعر . قال : لقيت بمعرة النعمان
محباً من العجب . رايت شاعراً طريفاً يلعب بالشطرنج والرد ويدخل في
كل فن من الجدل والحزل يكنى أبا العلاء . وسمعت يقول : أنا أحمد الله
على العبي كما يحمده غير . على البصر ..

تلك هي العلامات الثلاث مجتمعات لأبي العلاء : اطباب في الإعجاب .

ونهاية الزرابة (١) : وحيرة في كلام واصفيه كمحيرة المتحدثين عن خوارق الغيب وعجائب الأساطير ..

ولذا بلغ من تعدد الجوانب برجل واحد أن يقول قوم إنه فخر بين الإنسان . ويقول قوم إنه كلب وحمار . ويسلكه أناس في زمرة الشيطان ونحبه أناس وليا مستجاب الصلاة . ويخيل إلى فريق أنه ساحر وإلى فريق أنه طرفة من الطرف وأسطورة من الأساطير - فذاك هو الأفق الواسع . وتلك هي العظمة الباقية .. ومن شاهده في زمانه فلا حاجة به أن ينتظر ألف عام ليعلم أنه باق إلى ألف عام . وأنه محفل به بعد ألف عام . أو ينفي الدنيا بامتداد خبره ما بقي لعصره خبر بين سجلات العصور .

وما قد مضى اليوم ألف سنة هجرية على اليوم الذي ولد فيه أبو العلاء ثلاث بقين من شهر ربيع الأول سنة ثلثمائة وثلاث وستين . ولد كثيرون في هذه السنين الطوال كما ولد . ومات كثيرون كما مات . وتكررت الولادة والوفاة في الأمم العربية مئات الملايين من المرات . ولكن ذلك المولد النادر لم يتكرر قط في هذه السنين . ولم يزل مولد ذلك الوليد حادثاً فرداً بين ثمرات الأضلاب والبطون . يستحق أن يعاد إليه من سنة إلى سنة . ومن جيل إلى جيل ، ومن آت عام إلى ألف عام ..

وبين الذين كررتهم الدنيا ألوف من أمثال ذلك المسكين المغرور الذي أغضبه السؤال عن أبي العلاء بين يديه ، ورأى من سوء الأدب في مجلسه أن يعادله اسم على مسمع منه ، ولكن التاريخ الذي كررهم كثيراً ومل من تكرارهم طويلاً لم يدركه الملل من ترديد اسم أبي العلاء المغضوب عليه وعلى من سأل عنه . ولم ير من سوء الأدب أن يصبح ويمسى بتعجيد ، وأن نحصى الأحقاب بعد الأحقاب لملاقاته في يوم عيده . بل رأى من سوء الأدب أن تمضي ألف سنة ولا يستوقف الزمن الماضي محتفلاً

(١) الزرابة : زرى محله عليه زراية عابه وعتب عليه .

بذكراه . مستعيداً لميلاده ، مشيراً إلى مطلعته كما يشار إلى ظواهر الكون التي تستعد . لأنها قلما تعود ..

ولقد وقف على قبره - يوم وفاته - ثمانون شاعراً أو يزيدون ، وتقف على قبره اليوم أمم العروبة جمعاء ، وأمم شتى من جميع الأقطار والأحساء ، مئين أو فوق المئين ، ينوب منها الشاهدون عن الغائبين .

ولذا عدل الزمان . فهذا الوفاء هو سواء الميزان . بين أناس وسمره بعزة القدر . وأناس وصموه بنحة الحيوان .

• = •

تسلّمت هذه الذكرى قبل ست سنوات ..

وكانت الصحف السورية قد نقلت إلينا في ذلك الحين أن حكومتها فرغت من مراجعة رسم التابوت الذي أزمعت إقامته في المعرة على قبر أبي العلاء ، وأنها تعد العدة للاحتفال بانقضاء ألف سنة هجرية على وفاة الشيخ والصواب على مولده كما هو ظاهر ، وكما تشير إليه بعد سطور فخطر لنا أن أبا العلاء قد دعى من حظيرة الخلود إلى شهود ذكراه . وأن الأمد لا يزال فسيحاً بيننا وبين ذلك اليوم المشهود ، ففي ذلك الأمد متسع لرحلة علائية حول الكرة الأرضية ، يرى فيها ما بعثنا أن يراه ، ويقول فيها ما ينبغي أن يقول ، أو نقول نحن على سانه ما يشبه مقالته في أوانه ، قياساً على ما صنع هو في الأيام حين حدثنا في رسالة الغفران بلسان الأدباء والشعراء . وجعل لهم من كلامهم وأخبارهم دليلاً له في كلامه وأخباره ..

فكتبنا يومئذ سلسلة هذه الفصول التي سميناها رجعة أبي العلاء . وعرضنا فيها حوادث الدنيا كما تتمثل له وللمن ينظرون إلى أمور العصر الحاضر مثل نظراته في سائر الأمور . ونحسب أننا أتيينا بصفوة الآراء التي توافقه وتستخلص من جملة تفكيره ... ما لم يكن قد تغير نظره بعد موته . وهو مستحيل ! ..

ونحسب كذلك أننا لم ننحله رأياً يشكره لو أنه عاد إلى هذه الحياة
فالدنيا في زماننا هذا . لأننا شفّعنا آراءه الحاضرة بأقواله المحفوظة فيها
عرض له من خطوب زمانه . فتشابهت الأقوال وتقاربت الأحكام . وبني
على من يخالفنا أن يزعم أن هذه الآراء غريبة عن منحى أبي العلاء في
تفكيره . وبشيت ذلك بكلامه وآرائه في مثل ما نحلناه . ويومئذ يظهر أن
الإنكار هو الدعوى التي تفتقر إلى الشواهد والبيّنات .

وقد مضى الآن زهاء ست سنوات منذ كتبنا هذه الفصول . دارت فيها
الأيام دورتها واضطربت فيها الحوادث اضطراباً . فلا شك أننا حين وصفنا
الحوادث كما وصفناها واستطلعنا العواقب كما استطلعناها . لم نقم على
حكيم المعرفة رأياً كذبته الواقع وأنكره الحق الصادق . ولم ننحله قولاً
يزرى بصائب فهمه أو يقدح في صادق حكمه . فإن كنا وافقناه فقد
أرضيناه . وإن كنا خالفناه فما أخجلناه .

ومن محاسن الاتفاق أن تحتفل الأمم العربية بتمجيد أبي العلاء وهي
تتطلع إلى استقلال كريم يرضى الحكيم العربي الصميم . ونهض إلى مجد
طريف يستجد لها معالم المجد القديم . وأن تعاد « رجعة أبي العلاء » في
طبعها الثانية والدعوة إلى الاحتفال جارية إلى مجراها . ووفود الحبيب
معري مستبقة إلى ملتقاهما . فهي نعمة في الأوان . وقربان على ذلك
المحراب ... مزاجه الشكر والعرفان ..

عباس محمود العقاد

تمهيد

منذ سنة وشهور نشرت المصحف من أنباء سورية « أن حكومتها فرغت
من مراجعة رسم التابوت الذي أزمعت إقامته في المعرة على قبر أبي العلاء .
وأنها تعد العدة للاحتفال بانقضاء ألف سنة هجرية على وفاته . أو على
ميلاده كما هو المصوب .. فالمعري كاره الحياة بعاد طوعاً أو كرهاً إلى
الحياة كرة أخرى ! ..

خطر لي هذا الخاطر فأحببت أن أتخيل « رهن الحسين » بحوس بيتنا
خلال الديار . ويتمرس بأحوال الأمم في عالمنا الحاضر . فإذا هو قائل ؟
وماذا هو فاعل ؟ ..

لا شك أن أحوالنا كأحوال العصر الحاضر قد كانت مشهودة معهودة
في أيام أبي العلاء . ولا شك أننا واجدون في كلامه حكماً مكشوفاً أو
ملفوفاً على جميع تلك الأحوال . فأما ما يختلف من شؤون زماننا وزمانه .
فهل يستطيع قيامه والنفاذ إلى رأى أبي العلاء فيه وفقاً لذلك القياس ؟
وهل في مقدورنا نحن أبناء هذا الزمن أن ندعو الحكيم للجهر برأيه فيه ؟
ذلك ما قد حاولناه في هذه الصفحات (١) . ونحسب أننا قد أصبنا فيه
بعض التوفيق . ان تعذر التوفيق كله في مجال الفرض والتخمين ..

ومضت فترة ولم نسمع خبراً عن المفضل المنظور : هل تم بناء الضريح ؟
وهل تم ثمت التابوت ؟ وهل تحت العدة ؟ وهل تُشرّيت الدور إلى
تحمج قبر الحكيم ؟ الأرجح أن هذا كله ماضٍ في طريق النسيان . وأن
المفضل المنظور قائم في موعد قريب ... لكن أبا العلاء الذي بعثناه وأطفناه
بالعالم كله مع بعض تلاميذه قد بلسغ غاية المطاف . وسمّم المصيّبين

(١) نشرت هذه الفصول والأبواب في صحيفة البلاغ للدرء ماحداً الأربع الأخيرة من
سبق نشرها . .

والأضياف . وأحب أن ينوب إلى داره وأن يقر في قراره . فتحن هنا
مذبذبون قصيدا لأني علاننا يودع به من سوف يستقبلونه . ويعتذر به لمن
ممكنه في الدنيا ولا يرسلونه . ويقول أو نقول في مكانه . ما ينبغي
أن يجري على لسانه . وذلك هو نشيد الوداع في ختام هذه الصفحات .
أنابنا في نظمه على سنة اللزوميات . فله الحسنة منه . وعلينا نحن
السيئات ..

• • •

قبل أن بعض المكنتات الإيطالية أهابت بالأدياء من العرب أن يوافقوها
باسم الأديب الذي تجتمع فيه خصائص العبقريّة العربية . فأجمعت الآراء
على أنه هو أبو العلاء ..

وقواعد الانتخاب ليست بمقطع الرأي في مزايا الفنون والآداب . ولكننا
نراها في هذه الفتوى قد حكمت بالصواب . وأجابت أحسن الجواب ..
إذا الحقيقة أن حكيم المعرفة خير من يمثل الذهن العربي والسليقة السامية .
غير مستثنى في ذلك أحد حتى صاحبه أبو الطيب ... لأن تمثيل الذهن
غير تمثيل الطبيعة العملية ، التي يرشح فيها أبو الطيب للمكان الأول
بين شعراء الضاد . وأبو العلاء هو الذي يمثل الذهن العربي في تفكيره وفي
مقاييسه وفي نظره إلى الدنيا . دون سائر المفكرين من الشعراء .

• • •

وعسى أن تكون هذه الآراء التي وضعناها على لسانه وقصاها إلى
المعهود من كلامه هي ترجمان الذهن العربي حين ينظر إلى حقائق العالم
في زماننا الحديث ..

وقد

نقلت الصحف من أنباء سورية أن حكومتها فرغت من مراجعة رسم
التابوت الذي أزمعت إقامته في المعرة على قبر حكيمها وحكيم العرب
أبو العلاء . وأنها تعد العدة من اليوم للاحتفال بانقضاء ألف سنة هجرية
على وفاة الشيخ . والصواب على مولده كما هو ظاهر . فان الأمد لا يزال
بعيدا بيننا وبين ذكرى وفاته . إلا إذا كان الغرض التقريب لا التحقيق .
ولا حاجة إلى ذلك لقرب ذكرى الميلاد .

• • •

تمثلت مندوب الحكومة السورية يحملون قرارها إلى شيخ المعرة .
ويبلغونه أنهم سينون تابوتا على قبره . وأنهم سيدعون علماء المشرق
والمغرب إلى موطنه للاحتفال بذكرى ميلاده . فإذا يقول ؟ وماذا يقولون ؟
إن الشيخ ليتامل في منجمه بعد أن استراح فيه مئات السنين . وأذ
ليخاطب جدته اليوم كما خاطبه وهو في قيد الحياة وقيد المحبين :

يا جدي حبك من رتبة أنك من أجداثهم معزلا
أملئي الدهر بأحداثه فاشتقت في بطن الثرى منزلا

ثم يسأل متاقلا : من أنتم ؟ وماذا تبغون ؟ فلا يعلمونه من هم وماذا
يبغون حتى يبهاتف قائلا : أئبنون لي تابوتا ؟ أما قرأتم أو سمعتم قولي :

إن التوايت أجداث مكررة فجنب القوم سجننا في التوايت

فيحار الجماعة . ولا يدرون بماذا يجيبون . ولكنهم حريصون على
إقامة التابوت . وعلى تمجيد الرجل وتشريف مدفنه وتشريف ذكره .
وسيكون بينهم ولا ريب أناس ممن عركوا السياسة وحذقوا أساليب
الخطاب والتدرج في المعاملة والإرضاء . فيقول قائل منهم : أبأبى مولانا
الكرامة والتشريف ؟ ! ..

فيجب الشيخ :

لا تكرر ما جسد إذا ما حل في ويب المنون فلا فضيلة للجسد

ثم يقول :

إذا أنا وارانى التراب فخلنى وما أنا فيه ، فالتراب مؤننى !

ثم يقول كما قال من قبل :

أرغب في الصيت بن الأنا م . وكم خل التابه الصيت (١)

وحسب الفتى أنه مائت وهل يعرف الشرف الميت ؟

فيلهم أحدهم أن يراجع بيت من كلامه . وأن يذكره أنه ليس بميت وإنما هو حى خالد . أو ليس هو القائل :

وجدت الناس ميتاً مثل حى يحسن الذكر أو حيا كبت

فإنس أبو العلاء إلى ما سمع . ويعجبه أن يروى له شعره بعد مئات السنين . ويسألهم : وماذا تزيلون الآن من جمع المجموع حول هذا التابوت الذى تبنونه ؟ أتراكم تمدحوننى وأنا القائل :

إن مدحونى ساءنى مدحهم وخلصت انى فى الثرى سخت (٢)

فيجيبه أريب كيس من القوم يعرف كيف ينسلل إلى كمين الرضى من سريرة الشيخ . ويقول له : بل نثنى على أنفسنا وعلى بلادنا بما أنجيت من فضلك وأحييت من ذكرك وحفظت من أثرك . فأنما يعيبنا ولا يعيبك أن نفسى هذا ونهادى فى نسيانه . ولن يصبرك أن تكف عن مدحك وأنت القائل عرفانا بقدرك :

فلا وأبيك ما أخشى انتقاصا ولا وأبيك ما أرجو ازديادا

(١) الصيت : التشديد الصوت .

(٢) سخت : دخلت رجلى فى الطين وقأيت . وبى الأرض : حسب .

ولكنه يصبرنا كل الضير أن يثنى عليك الغريب ونحن سكوت . وأن يمدح الناس من ملل الأرض حكماءهم وشعراءهم ولا تمدحك وأنشد تنافلك وسجياك ..

وكأنما يطلق ألسنتهم اصغاء الشيخ وارتياحه وما يعهدونه فيه من حب الصراحة والفكاهة فيقول منهم قائل : ثم ماذا يخيفك اليوم من المديح . وقصارك من خوفه أن تعسب أنك سخت فى باطن الأرض ؟! لقد أصبح الخيال حقاً والحسيان واقعاً ، وجربت بطن الثرى مئات السنين .. فلا ضمير عليك اليوم أن تسمع من المديح اللواوين والأسفار !

فيضحك الشيخ ويفتح للحديث ويجرى معهم فى مجرامهم فيقول : لا يغرنكم يا أبنائى أننى أزهد فى المديح وأننى أسكن إلى الزهد فيه وفى الحمد والسلطان ، فما أبرئ نفسى من كبرياء ، وما أزعج أننى اخترت العزلة والفاقة عن صغر فى المطامع أو قنصاعة بالحظ الوضع ، ولكننى لا أرى لأحد عيشاً فى هذه الدنيا إلا أن يسودها أو يستخف بها ويعرض عنها :

ذر الدنيا إذا لم تحظ منها وكن فيها كثيراً أو قليلاً
وأصبح واحد الرجلين : إما مليكا فى المعاشر أو أيبلا (١)

وما أتبع لى أن أصبح مليكا فى المعاشر : فأصبحت باختيارى راهباً مثبلاً أعرض عن الدنيا ولا أربها أنها هى التى أعرضت عنى ونحت من حنى ! ..

إذا كان هذا الترب يجمع بيننا فأهل الرزايا مثل أهل الممالك

فيقول قائل منهم : نعم أيها الامام . لقد كررناك حنى فهمناك كما قلت فى بعض شعرك :

يكررنى ليفهمنى رجال كما كررت معنى مستعادا

(١) أيبلا : راهب .

فما تخفى علينا خافية من هواجس ضميرك ولا تغيب عنا خالجة من خواجس طبعك . وأنتك لناضل مكبوح ومغامر محبوس . وأن نفس الزاهد منك لمقرونة بنفس السيد الذى لا يدين فى الحياة لغير حكمه ، وبأنف أن يموت حنق أنفه . وقد عشت هكذا فى عالم الرأى آمرا لا بأمرك الحاكمون . وأبياً لا يخضعك المغلوبون ، وتميت يوماً :

من السعد فى دنياك أن يهلك النفس بهيجاء يغشى أهلها الطعن والضربا
فان قبيحا بالمسود ضجعه على فرشه يشكو إلى النفر الكربا

وترددت بين القلم والسيف فقلت :

وإن العز فى رمح وترس لأظهر منه فى قلم ودرج
وما أختار أنى الملك يجي إلى المال من مكس وخرج
فدع الفيلك من عرب وعجم إلى حلقك من كتب (١) وسرج
سراجك فى الدجعة عين ضار والا فالكوأكب خير سرج

ويقول الشيخ مبنيها : لقد أحصيت على فلتات اللسان وشوارد الأمانى وشطحات الأوهام ، وعلمت بوصيتي حين قلت :

اقرأ كلامي إذا ما ضمني بجدتي فانه لك بمن قاله خلف

ولكني كنت أوتر لو نسيتم بعضه ومنه هذا الذى ذكرتموه . فما أحسب إلا أننى حاذقه من جملة كلامي لو تمكنت من تلك الأوراق التى حفظتموه فيها .. فاحذفوه ..

...

ثم خطر لبعض الحاضرين أنها فرصة لاتضيع ، فيسألونه : ألا نحمل إليك تلك الأوراق فنراجعك فيها تغير منها وما تأمر بمحوه ، بعد أن ننظر فى الدنيا نظرة وتطلع منها على ما استجد من حالها وتبدل من خلائق أهلها ..

(١) القتب : الرجل .

فإذا الشيخ يتجههم هنيهة وقد عاودته سوداؤه وانقباض صدره وذهب يقول :

أما خلائق أهل الدنيا فإنما يتبدل الرأى فيها لمن يرام على إحسدى حالين :

فمن قال إنهم كانوا فى غابر زمانهم أهل ورع وصلاح وأصحاب كرم وتقوى . ثم عدت عليهم عوادي الزمن فصعدوا عن سبيل الخير ، فذلك خليق أن يصف منهم شأناً ، ثم يعود بهم إلى شأن غير الذى وصف .

ومن قال إنهم اليوم جاهلون وغدا يعلمون ، وأنهم اليوم على عوج وغدا يستقيمون ، فذلك أيضاً خليق يتبدل الرأى فى الناس عصرراً بعد عصر وأمة بعد أمة .

وما أنا هذا أو ذاك ؟ .. أنا قد بلوتهم فعلمت أنهم للكذا كانوا منذ كانوا ..

وهكذا كان أهل الأرض مذفطروا فلا يظن جهول أنهم فسدوا ثم بلوتهم ورجوت صلاحهم واستأنفت الرجاء فيهم وعجبت من امرى معهم على شدة علمي بهم ، ومازلت أستغرب من تلك الحال التى أحاولها ونحاولنى :

وأعجب منى كيف أخطئ دائماً على أننى من أعرف الناس بالناس حتى انتهيت إلى رأى لا يتبدل !

فلا تأمل من الدنيا صلاحاً فذاك هو الذى لا يستطاع

نعم ذاك الذى ما استطعته وإن تستطيعوه ، ولكن :

نزول كما زال آبؤنا ويبقى الزمان على ما ترى

...

وتذهبون فى كل مذهب وتطمعون فى كل مطمع ، ثم تعلمون بعد خطأ لا تزلون ترجعون إليه أنه :

حكم بحري للمليك فينا ونحن في الأصل أغبياء ٩١

فهو داء عياء ليس له شفاء ، وكنت أزعج أن الموت يرى الخلائق منه .
فها أناذا معكم لم أكد أشعر بظل الحياة حتى استرجعت من دأها كل
ما كنت أشكوه وأعاجله وأرجو الغلبة عليه ... كلا يا أبنائي : لا تحذفوا
حرفاً مما كتبت في خلائق الناس ، أو احذفوه كله فما هو بضائركم أن
تجهلوه . وهو منا ومنكم في الصميم ، وأنه لباقي في النفوس إن زال من
الطروس ..

تمثلت هذا الحديث بين شيخ المعرفة وبعثة الحكومة السورية إليه .
وأحال أنني على صواب حين أزعج أن الشيخ في طليعة الحكماء الذين
لا يغيرون ما قالوه في هذا المعنى بعد آلاف السنين . لأنه لم يؤمن بالنكسة
بعد العلاج . ولم يؤمن بالتقدم والارتقاء ، فيتطرق الخلاف من أحد
البابين إلى مجمل ما قال :

لكن شيمة واحدة في حكم المعرفة أخطأ لو تغيرت قليلاً لتغيرت فلسفته
جميعاً من الألف إلى الياء ، ولألفي كثيراً من سقط الزند وكثيراً من
الزروميات ، ولخرج بدويان يقرأه القاريء فلا يهجن في خاطره ذكر
المعري المعهود . لأن تغير تلك الشيمة يخرجه خلقاً جديداً لا يمت بقرابة
ذهن ولا بأصرة نسب إلى ذلك الحكم الذي عرفناه ..

صاحب الجلالة المعري

قلت في ختام الفصل السابق : « إن شيمة واحدة في حكم المعرفة
أخطأ لو تغيرت قليلاً لتغيرت فلسفته جميعاً من الألف إلى الياء ، ولألفي
كثيراً من سقط الزند وكثيراً من الزروميات ... » .
فها هي تلك الشيمة ؟ ..

هي السم والوعار ، أو هي كما نقول في لغة العصر الحاضر أذ
البيئة وأصول اللياقة ..

وهذه الشيمة في الواقع وازع قوي عظيم الهيمنة على جميع النفوس .
وإن عدنا بعضهم ثمانية أو ثلاثة أو أربعة في ترتيب الزواجر الأخلاقية
والنفسية ، لاعتقدهم أن الزواجر إنما تفعل في الطباع فعلها على مقدار
ما يحيط بها من ضجيج وطنين ، أو على مقدار ما لها من أسماء وعناوين .
لا على مقدار بواعثها من الطبع ومن قوانين الاجتماع ..

إن جميع الزواجر والأوامر والنواهي لا تخرج دانقا (٢) ولا محتوتا من
كثر المرأة العجوز الذي تجمعها من الدوانيق والسحاتيت . ليكون لها بعد
وفاتها مشهد " يليق " ويجري مع العرف الشائع بين البيوت .

وإن الرجل ليقدم على جميع المخطورات غير حافل بالعقاب أو سوء
المآب . حاشا المخطور الذي « يسقطه » في نظر الناس ويغل بقواعد
المروءة في البيئة التي هو منها . فذلك حد لا يتخطاه إلا وقد تحطى قبله
جميع الحدود واجترأ على جميع المنكرات .

وإن الخمر والزنا والسرقة ، لفي درجة واحدة من التحريم في بعض
الشرائع السماوية ، ولكن الناس يجانبونها أو يستبجحونها على حسب

(١) الست : هيئة أهل الخير ، والهيئة مطلقة .

(٢) دانقا : بفتح الدال وكبرها : عيار يساوي سدس الدرهم .

نصيبها من الزراية في البيئات التي يعيشون فيها ، ونعني بها بيئة المعيشة وبيئة المعاشرة وبيئة التفكير ، وربما وجد من الناس من يباهى ببعض تلك المظهورات في بعض بيئاته ، وإن كانت في بيئات أخرى مجلبة العار والمذمة والنفور ..

وربما استخف المرء أو المرأة بكل منكور وممنوع ، إلا أن يزف بنته أو بنتها مثلاً في شوار أقل من الشوار (١) المصطلح عليه ، مع أنه غير ممنوع في دين ولا في قانون ولا في شرع معقول ، ولكنه ممنوع في أدب البيئة أو أدب اللباقة .. فهو إذن أصعب المنوعات .. !

• • •

والخلاصة هي غاية السقوط عند العرب أو عند المتكلمين باللغة العربية ، وإنما الأصل في الخليع أنه الرجل الذي يتعلمه أهله ويبرأون منه ، فهو من ثم يجلب على نفسه أكبر العار ، وإن لم يقارف شيئاً من معاصي الدين والقانون على حسب العرف الحديث .

وإنهم ليجدون متسعاً من القول في كل عاص ، وكل جارم ، وكل آثم إلا الخليع فلا متسع فيه من القول بعد الخلاعة ... وما عسى أن يقول القائل في خليع ؟؟ تلك غاية الغايات وقصارى الموبقات ، فلا ملامة ولا عتاب ! ..

المعري مثل من الأمثلة البالغة على سلطان البيئة أو على سلطان أدب اللباقة ، وأدب العرف والتقاليد :

فهذا الحكيم الذي عرض على فكره كل أصل من أصول الحكمة وكل مذهب من مذاهب الدين ، فلم يقبل منها إلا ما ارتضاه برهانه ، ولم يتخذ له اماماً غير العقل في صبحه ومساءه .. هو بعد هذا كله أسير « أدب اللباقة » بمنعه هذا الأدب ما ليس بمنعه شرع ولا فلسفة ولا عقيدة وهذا القائل :

وسيان من أمه حرة حصان ومن أمه زانية !

(١) شوار : الشرار بفتح الشين ، القباس الحسن والهيئة .

هو هو الذي يأتي أن يدخل الوليد على النساء بعد بلوغه العاشرة . ويأتي أن تذهب المرأة إلى الحمام ، ويغشى على عرضها أن تخرج إلى الحج فلا بعده فريضة على عجز النساء ولا العذارى ! .

ذلك هو ، السمات اللاتق ، بالمرأة في شريعة البيئة ... فالسيدة الحصان تنجبها الأسرة الوقور لن تكون إلا على هذه الصفة ، ومتى وصلنا إلى السمات اللاتق أو إلى أدب اللباقة فأبو العلاء وسائر أبناء البيئة سواء ، والفيلسوف الذي قال :

كلب الفن لا إمام سوى العدا قبل مفيداً في صبحه والمساء

لا يعنيه من امانة العقل هنا إلا ما يعنى فعائد البيوت وعجائز الأمهات والجندات ، ذوات البنات اللاتي يلتصقن الأزواج في ستر وحشمة وصيان !

• • •

ولعلنا تسهّلنا بعض التسهّل إذ قلنا : إن أبا العلاء وسائر أبناء البيئة سواء .. فانه لأشدّ تحرجاً من كثيرين . وأنه ليحظر على نفسه ما يبيحه آخرون ، وأنه ليحسب الوقار جمالاً لا يبدانيه جمال في الرجال . فان حذر من الشيوخ آفة فلنما يحذر أن يدركه الخرف :

وما أتوق والخطوب كثيرة من الدهر إلا أن يحل بي الهيشتر (١)

وإذا رنى أباه في صباه وهو يتخيل موقف الحشر ورهبة القيامة وزحام العطاشى على الخوض فليس ينسى أن يسأل عن ذلك الأب :

ألا ليت شعري هل تخف وقاره إذا صار أحد في القيامة كالعهن (٢)

وهل يرد الخوض الروى مبادراً مع الناس أم يأتي الزحام فيستأني

فكانه يقف بالدين والفلسفة عند باب العقل ، ثم يقف بالعقل عند باب الوقار أو أدب اللباقة ، ثم لا يسأل هذا السلطان الجائر سؤالاً واحداً من تلك الأسئلة التي كان يشنها من كل جانب على جميع السلاطين وجميع

(١) الهيشتر : يكثر الهاء ، الكلاب ، والسقط من الكلام والخطأ فيه .

(٢) العهن : الصوف أو المصوغ منه .

الفتولات وجميع الأحكام . ولو أنه سأل وأباح نفسه الجواب الصريح لما أخذها بكل تلك الصرامة ولا أحال عليها كل تلك القيود .

أما مرجع ذلك السلطان الجائر من حياة أبي العلاء فهو أسباب كثيرة وليس بسبب واحد :

مرجعه إلى تربية الأسرة ..

فقد كان أبوه وأمه من ذوى الوجاهة والصلاح ، وكان آل أبيه يتوارثون الفضاء في بلده ويعيشون بين الناس كما يعيش رجال الدين ورجال الحكم على شعائر المروءة والتعفف والأئمة من غشيان وقائع الشبهات . وكل الهبة التي لا غنى عنها لمن يسوسون الرحمة باسم الله واسم السلطان ..

ومرجعه إلى الخليفة العربية ..

فقد كان أبو العلاء عربي النجر (١) عربي الطبيعة ، يفهم أن العرض غرور الشرف والامر . وأن الانتحال هو الموان الذي ما بعده هوان . وأن الرجل الذي يجترى عليه المجترى بملمة أو سخرية هو حصى مسلج . وأن من لا حياة له لا حياة له ولا خير فيه . وأن السنة ما سنه الآباء ويجرى عليه العرف وسارت به الأمثال وحسنت به القلوة .

ومرجعه إلى فقد بصره ..

فإن الضمير قد يصبه السحر واللام لا نور يوقعها البصير ولا من يسخر به أو يلوذ به . وأن البصير قد يمارس من الشهوات ما بأن الفضيحة فيه . لأمانه من أن يطلع عليه أحد غيره ، وليس ذلك في مقدور الضمير : فاما الفضيحة والعار وأما الزهد والوفار .

ومرجعه إلى كبرياءه وعزة نفسه ..

فإن الأعلى قد نهون عليه الفضيحة في سبيل الشهوة ، إلا أن تكون له كبرياء تأتى له المهابة والابتئال . فهون عليه فقد الشهوات واقتناء الكرامة ..

(١) النجر : النجر والنجار : الأصل والحسب

ولقد رأينا أن أبا العلاء كان لا يرضى من الدنيا إلا بالسيادة عليها أو بالإمراض عنها . فاما الملك وإما الرهبانية ولا توسط عنده بين الأمرين . ولا يحب أحد أن . فكرة الملك : عارضة في ذهنه كما يمرض الخاطر في أحد الشاعر . فإن للمجدد المجدد في اللغة مكدو . في فقرة صديقه يدل عليها شعره ونثره . ولا تزال غالبية عليه في جماعات الأهواء وفئات البلدان . فسرعان ما ينب إليها كلما عرضت لها لغة فهوور . وله في ذلك أبيات تهدد بالفتنات منها :

لا ملك لي وأرى الدنيا عامرني وما حجبت وقد لاقت احصارا
ومنها :

ما سرني بفسانة أو تبهيا في العيش ملكا غائب وفار (١)
ومنها :

لو شاء ربى لصاغني ملكا أو ملكا ... ليس يعجز القدر !
ومنها :

وزهدني في هضبة المجد خبرني بأن قرارات الرجال وهود
ومنها :

لا كانت الدنيا فليس يسرني أني خليفتها ولا محمودها
ومنها :

محدودا الله والمحدود خذاه فعد عن ذكر محمود ومحدود
ملكنا أو أرى خيرت ملكها وعود صلب ، أشار العقل بالعود
ومنها :

ما سرني أني إمام زمانه نلقى إلى من الأمور مقاد
ومنها :

أمر إن كنت محدودا على صغرى ولا أمر بأنى الملك محدود
وقد أحمده أن يراه راء في الكرى بلس ناجا فقال :

بأنى في الكرى رجل تاني من الذهب اتخذت غشاه واسمى

(١) فار : كل ما يلزمك صمد وصاحبه كالحرم والغير .

قلنسوة خصصت بها نضارا كهرمز أو كلك أولى خراس
فلت معبراً : ذهب ذهاني وتلك نباهة لى فى اندراى

ولعل الرائي هو أبو العلاء نفسه قد أظهر له المنام ما أخفاه العقل الباطن.
من نوازع الكبرياء . أو لعله صاحب خبيث قد استطاع طلمه وعرف
شمرخ طبعه فرأى المنام حقاً أو لفقه له ليغم رضاه .

وكانه لما فاته التاج وسوس له « غفله الباطن » فى المنام فرأى تلك
الرؤيا ، وسوس له فى البقطة فقال فى المفاضلة بين تاج الملك وتاج الزاهد :
والتاج تقوى الله لا ما رصعوا ليكون زيناً للأمير الفاتح

وأمثال هذه الأبيات وعشرات مثلها لا تيسر من رجل يمزح حين يقول :
كن فى الدنيا كثيراً أو قليلاً ، فاما مليكاً أو راهباً .. ثم تدركه الأنفة أن
بأكل من رزق غيره مع الرهبانية فيقول :

ويعجبني فعل الدين ترهبوا سوى أكلهم كد النفوس الشحاح
كلا .. ذلك رجل قد تغفلت الأنفة فى أعماق طبعه . فما هى عنده كلمة
محاز أو كلمة مزاح أو شطحة خيال .

تلك مراجع شتى لعادة السمى أو « أدب اللباقة » فى خلائق أبى العلاء .
ومرجع آخر نضيفه إليها ولا نحسبه قليل الأثر فى تكوين تلك العادة :
أنه كان ضعيف البنية ضعيف الخوارج الجسدية ... فلم تغلبه شهوات اللحم
والدم ولم يعسر عليه ضبطها فى عنان السمى مدى تلك السنين الطوال ..

على هذه المراجع جميعها قام « أدب اللباقة » فى خلائق أبى العلاء .
أو قامت تلك الشبهة التى قلنا إنها لو تغيرت قليلاً لخرج أبو العلاء رجلاً
آخر : من يقرأه لا يهيجس فى خاطره ذكر المعرى المهود .. ترى هل
كان تغييرها من المستطاع ؟

وهذا كان المعرى صانعاً لو قدر على تغييرها ؟؟

عالم السرية

قلنا فى ختام الفصل السابق إن الخصلة التى لو تغيرت فى أبى العلاء
غيرت معيشته كلها أو غيرت مذهبه فى الحياة كله . هى خصلة الوقار
وكراهة السخر والمهانة أو هى خصلة « اللباقة » كما نسميها فى العصر
الحديث ..

وقلنا إن هذه الخصلة مردودة فيه إلى مراجع كثيرة ، وهى التربية فى
بيت العلم والوجهة . والسليقة العربية . وفقد البصر . والكبرياء . وضعف
البنية ضعفاً أتاح له أن يكبح نوازع المحم والدم ويقمع دوافع الشهوات ..

وسألنا : هل كان من المستطاع تغيير هذه الخصلة ؟ وماذا كان المعرى
صانعاً لو أنها تغيرت بعض التغيير أو كل التغيير ؟

وعندنا أن تغييرها كان مستطاعاً كما استطاع كل تغيير فى عوارض
الصفات ..

فإن تلك المراجع التى أنشأت فيه حب الوقار ليس من شأنها أن تنزع
بصاحبها إلى النسك والزهد فى الحياة إلا إذا اجتمعت فى وقت واحد .
أما إذا افترقت ولو بعض الافتراق فليس النسك لصاحبها يلزام . وليس
حنفاً عليه أن يأنف من نعيم الحياة .

إذ ليس كل من تربى فى بيت من بيوت العلم والدين والوجهة بصادف
عن اللذات والشهوات . أو بما كلف على الصوامع والندور التى يسميها
المخابس .. والأمثلة فيما نراه وفيما نقرأه كثيرات ..

وليس كل عربى تمنعه صيانة العرض أن يعاقر الخمر ويستطيب
المجون . فإن أمراً القيس وطرفة الأعشى عرب فى الصميم من العروبة .

ومجانبهم مع ذلك كنجون الشعراء من أبناء الأمم الأخرى في عهود الجاهلية وعهود الأديان ..

وليس كل ضرير عازفاً عن مواقع الشهات . فان بشاراً قد ولد ضريراً وإنه لأسبق إلى الشهات من المبصرين .

وليس كل ضعيف البنية معرضاً عن حظوظ الأقوياء والأشداء . إذ ربما كان ضعف البنية سبباً إلى الإفراط في التماس تلك الحظوظ . لأنه يضعف الإرادة فلا تقوى على كبح سورات الطمع ووسوس الإغراء .. وكذلك ليس المتكبر مرفعاً أبداً عن الطرب والسرور . لأنه إذا كان بصيراً لم يكن في طريقه وسورته ما يجلب عليه السخر والمهانة . أو يعرضه لتغاير والتفريق بل لعله يرضى كبريائه أحياناً من طريق غزوات الحب ومظاهر البذخ والثراء ..

...

أما إذا اجتمعت هذه الأسباب كلها فن الصعب أن يفلح الطبع الواحد من أوهاتها (١) . ومن الصعب أن يوفق بينها جميعاً إلا كما وفق بينها أبو العلاء . أي باجتناب الدنيا والتزام العزلة وانقناعة ..

لكن افتراقها كان ميسوراً لا استحالة فيه . فلم يكن ضربة لازب أن يصاب أبو العلاء بالجدري في طفولته الباكرة . ولم يكن ضربة لازب إذا أصيب به أن يفقد بصره وأن يعيش بعد ذلك رهن الحبسين . وماذا يبقى من معيشة أبي العلاء أو من فلسفته في المعيشة إذا لم يكن رهن الحبسين ؟ أكبر الظن في هذه الحالة أنه كان يجمع بين النواسية والحيادية في نمط واحد . أو كان يُخرج لنا نمطاً جديداً يضاف إلى نمط النواسية ونمط الحبائى في ديوان الآداب الشرقية . ويكون لا ريب نمطاً بديعاً خليقاً ببلدك الذهن الوقاد وذلك الطبع الأصيل

(١) أوهاتها : جميع وهن وهو اختل وفيه أنشوطة يؤخذ به الدابة

وفي المعرى جميع العناصر التي تُخرج منه ذلك القبط البديع . ونعني به القبط الذي يذكر لك عمر الخيام أو يذكر لك الحسن بن هانئ قبل أن يذكر لك أبا العلاء الذي عهدناه ودرسناه

عنده الشك في أخلاق الناس وعقائدهم فهو القائل .

ما فهم بر ولا ناصك إلا إلى نفع له يحذب
وهو القائل

أوهت يا مغرور أنك ديني على يمين الله : مالك دين !
وهو القائل :

يكرم فيكم العهباء صبيحا ويشرها على عمد مساء
وهو القائل :

وما ينجون من دين ولا ناسك وإنما ذاك إفراط من الأشتر (١)
وهو القائل وفيه كل سخرة بخلائق الناس وخلائق نفسه :

عرفتك فاعلم إن ذممت خلائقي ورايك بعضي : أن كلك رائحي !

...

وعنده الرغبة في الحياة والشفقة بمتاع الدنيا . وكلامه في ذلك كثير . ومنه قوله :

تناهت العيش النفوس بغرة فان كنت تستطيع الشهاب فناهيه
ومنه قوله :

والمرء ليس يزاهد في عادة لسكنه يترقب الامكانا
ومنه قوله وهو أصرح مما تقدم :

ولم أعرض عن اللذات إلا لأن خيارها غنى خنسنه (٢)

وعنده الشك في عقي النفس وما يستتبعه ذلك الشك من قلة المبالاة والمساواة بين المحامد والمثالب . ولعل أوجز كلامه في هذا المعنى قوله :

(١) الأشتر : البصر .

(٢) خنسه : خنسه : أخره وأهده .

وقد زعموا الأملك يدركها الـ فان كان حفاظاً حاسة كالطهر
أما الخمر فلا أستبعد أن الشيخ قد ذاقها في بعض الأديرة التي كان
يفشاها للدرس ومراجعة المذاهب . فان أوصافه لما أوصاف من لا يقتصر
في العلم بها على الدواعي .

بل لا أستبعد أنه كان يتوكلها من حين إلى حين في بعض أيام العزلة
كما يتم عليه قوله :

فلا تشربنا ما حبيت . وإن عمل إلى الغر فاشربها بغير نديم
وإنك لتقرأ فيه الكثير عن الخمر فتلمس فيه نزاعاً شديداً إليها يعالجه
ويعاوده في معلم أيامه كما يؤخذ من قوله :

تخيت أن الخمر حلت لنشوة تجهلني كيف اطمانت في الحال
أو في قوله :

أياق نبي يحمل الخمر طلبة فتحمل شيئاً من هوو وأحزاني؟
وهيات لـ حلت لما كنت شارباً مخففة في الحلم كفة ميزاني أ
أو من قوله :

لو كانت الخمر حلاً ما سمحت بها لنفسى الدهر لاسرا ولا علنا
أو من قوله :

لا أشرب الراح أشرى طيب نشوتها بالعقل أفضل أنصاري وأعواني
أو من قوله :

لو كان قنسا (١) لم هبت ربحها بهضابه لم يبق فيه وقار
لو يحمل الشرب الراسي أو هو أن ليس فوق ظهورهم أوقار . . .

أو من قوله :
وها أقصرت لي أم ليلي يشربها حسنات أوقات على طياله

(١) اسم جبل .

أو من قوله :

لا يزلن بانثا كسبة ووع كم حبل الدين عقد للزناير
بها دمام كذوب الثبر تمزجه للشاربين وجوه كاللدناير
أو من قوله :

لقد خدعتني أم دفر (١) وأصبحت مؤيدة من أم ليلي بسطغان
إذا أخذت قسطاً من العقل هذه فتك لها في صلة المرء قسطن

أو من قوله :

لا أشرب الراح ولو ضمنت ذهاب لوعاتي وأحزاني
غمضاً ميزان حلمي بها كأنني ما خف ميزاني !

إلى أضعاف هذه الأقوال وما شاكلها في الزواري خاصة . وهي من
بعض الوجوه أشبه الأشياء بمفكراته الشخصية . وهذا عدا ما جاء في
رسالة العفران من وصف مجلس الشراب ولذات الشاربين في الدنيا
والآخرة

فإن لم يكن في كل ما تقدم دلالة على أن الشيخ قد ذاق الخمر وعاد
إلى مذاقها بعد لزوم الحبس فيه دلالة على اشتهاها ومغالبة نفسه عليها .
مغالبة ليس بالهين نسيانها وصرفها من ذهنه وهو اجس ضميره ..

. . .

ويرجع الظن بنزوع المعري هذه الزعة بين الحياية والنواسية انه
كان يعيش في عصر فتنة واضطراب ، وجزع على الأنفس والأعراض .
وتلك عصور يشيع فيها الفساد وتندر فيها العصمة ويكثر فيها اغتنام
الفرص والتهاطل على اللذات . ولا سيما على ملق الطريق بين حضارة
الروم وحضارة العرب وحضارة الفرس ، وكلها في ذلك العهد حضارات
أخذت في الزوال ولم تستبق من المناعة والتماسك ما يزرع النفوس ويعصم
الأخلاق ويحجب شرائع الآداب .

(١) كتابة من لغتها .

لكن لماذا نقول الحياة والنواصي ونفرق بين الطريقين وكلا الرجلين
الحيام وأبو نواس - معاصر كأس مقبل على متعة - مستخف بالدم
والثناء ؟ ..

نقول ذلك لأنهما على اتفاقهما في العمل مختلفان في أسبابه ودواعيه
وغاياته.

فالحيام يشرب وينعم لأنه عالج مشكلات الوجود فاستعصى عليه حلها
فتنع بالساعة التي هو فيها وعمد إلى الكأس يفرق فيها شكوكه وأسفه
على بطلان الحياة وعاقبة الحياة .

أما أبو نواس فلا شكوك عنده ولا مشكلات . وإنما هو شارب خمر
لأنه يشتهي ويتصدى لعقاب الآخرة في سبيلها ، فالآخرة عنده حقيقة
مفروغ منها وليست قضية في طريق الحل والجلد .. كما كانت في مذهب
عمر الحيام ..

أما أبو العلاء فهو قريب من أبي نواس في الثقافة العربية وقريب من
الحيام في التفكير والبحث عن أصول الأشياء . فهو لا يكون كهذا
ولا كذلك حين يستسلم لمتاع الحياة ، ولكنه يكون نمطا وحده يأخذ من
كلهما بما هو قريب إليه . وقد يترجم هذا النمط بعض الترجمة بقوله :
السيف والرمح قد أودى زمانهما فهل لكفك في عود ومضراب

...

إلا أننا نسأل ويحق لنا السؤال : هل كان حتما لزاما على المعري إذا
هو سلم من الجنون وعاش بصيرا بين أهل زمانه أن يدرس الدراسة
التي تشككه وتدفع به إلى البحث في أصول الأشياء ؟ ألم يكن من الجائز
أن استغراقه في الدراسة إنما كان نتيجة لفقد بصره وانصرافه عن الدراسات
الأخرى التي يشغل بها طلاب المناصب والمساعي الدنيوية ؟ ألم يكن من
الجائز أن يدرس - وهو طفل بصير - تلك الدروس التي ترشعه للقضاء
كما رشحت بعض أهله من قبله ؟ ألم يكن من الجائز إذا علمه أهله.

ليرشحه لوظيفة القضاء أن يكفى بدروسه الفقهية ولا يترسل في
دروس الحكمة والفلسفة وشكوك الأدبان ؟ .

كل ذلك مما يجوز . وقد ذكر هو المراتب والتطلع إليها في مواضع
من شعره ، وذكر الفتيا فقال :

فلدتني الفتيا فتوحي غدا ناجا باعفاني من التقليد
وقال يخاطب أبناء بلده :

يا قوم لو كنت أميرالكم ذهمت في العيب ذاك الأمير

...

فإذا فتح الطفل أبو العلاء بدروس الوظائف والمساعي الدنيوية فربما
ولى القضاء وعاش عيشة القضاة في زمانه فلا يطيل الدرس ولا يتشعب
في مناجية بعيداً من فقه الدين وفتاوى القضايا الشرعية ، وإذا تمادى به
البحث مرة ودعاه إلى ذلك بعض ما يسمع ويرى من حوله فما هي إلا
خطرة عارضة ، لا تثبت أن تذهب كما جاءت أو تنطوي في خبايا النفس
مزوية عن الاستماع والأبصار .

لقد كان إذن يجد الوظيفة والبصر ولكنه يعيش بعد موته في ظلام
التاريخ ..

لقد كان يعيش إذن جاهلا حقيقة نفسه ويموت مجهولا بين عارفه منله
قضى نحبه إلى أن يشاء الله .

أبو العلاء هو أبو العلاء

قال الرسول :

ألم يجمع شيخنا العظيم رأياً فيها اختار من تلك الشخوص ؟

قال أبو العلاء :

شيخنا العظيم قد اختار وفرغ من اختياره

قال الرسول :

أفياذن مولاي أن أسأله عما اختار منها ؟

قال أبو العلاء :

بل هو يسألك ماذا أنت مختار له من تلك الشخوص ، فاعلم بهدى
منك بهدى فيها يؤثره لنفسه ، من شكول حياته وأحوال وجوده .

قال الرسول :

عفوك اللهم وغفرانك ! أفنل بهدى أبا العلاء ؟ ولم أهديه تعاليت
ربي وتباركت ؟ فيها يأخذ من شأنه وفيها يدع ، وفيها يؤثره لنفسه وفيها
بأنى ! ماذا أسمع منك مولاي ؟ وهل بلغ من قدرى أن أصبح هدفاً
لسخرتك إن كنت ساعراً ، وغرضاً لهنكم منك إن طاب لك أن ترجع إلى
تهلكك القديم ؟ ..

قال أبو العلاء :

ولا كل هذا يا بنى ... ما أنا بساعر منك ولا متهمك . وإنما يعجز
الإنسان غاية المعجز حين يختار لنفسه ، ويقلو غاية القدرة حين يختار
لغيره ، وليس صاحب الحكمة بدعاً في هذه السنة التي حملت أبناء آدم
وسواء ، بل لعل الحيرة أعظم والتردد ألزم حين يختار الحكيم وينظر في
مختلف الشئون ، قياساً على كثرة ما يرى وكثرة ما يستوعب من المزايا
والنقص ، وكثرة ما يعلم للمسألة الواحدة من وجوه وأطوار . فلا جرم

تكون أهلاً للدوال الذي سألتك وأنا أخرج إلى جوابه ملك إلى جوابي .
 وإنما أنظر إلى شخصي كما ينظر الأب إلى أبنائه فلا أدرى من منهم الأكثر
 الرامح ومن منهم الزوي المرجوح . وأنا بعد صاحب الاختيار ومن
 يقع عليه الاختيار . وأنا بعد شاهد وشهود عليه . لما يأتك لتعرب
 متى أن آتس أن خاطر يخطر لك أو ظن يحوم في خلدك ! .. قل يا بني
 ولا حرج عليك من حكمة حكيمك العظيم كما تدعوه . ما أنت بجاهل
 وما أنا بعلم :

وما العلماء والجهال إلا قريب حين تنظر من قريب

قال الرسول وهو أخوه

ذلك علم استفيدته ملك إذ أنت تنكر العلم يا مولاي على نفسك .
 ولما رأيت أن أسألك عن شخص شخص من شخصك التي تعرض عليك .
 وأن تقول لي ما حمده منها وما ليس عندك بحمد . وأنا الرامح بما
 أسمع . وإن لم يبلغ من رأي أن يضاهي رأي الشيخ فيها يريد وما
 يباه ..

قال أبو العلاء :

قل على بركة الله ..

قال الرسول :

ذلك قاضي قضاء المرة أول تلك الشخص . أمثله سيداً جليلاً ينظر
 إلى الدنيا وينظر الدنيا إليه . ويتم بنصيب من الحياة يعلن منه ما يعلن
 ويطن منه ما يطن . ويسأله الناس في العلم والدين . ويقصده القاصدون
 فيها بشكل عليهم من قضايا الفكر . وقضايا المصالح والحاجات ..

وهو الرسول يطلب في مآثر قاضي القضاء وهو ينظر إلى وجه
 أبي العلاء لمراه يبتسم ويصفى في غير قليل من الرحمة والهدب . وغير
 قليل من العجب والاستجبال . ويتأني الرسول في كلامه ويكفكف بعض
 لثوه من أطابه وغلوانه ، فيعمد الشيخ إلى الكلام كمن لا ينشط إليه .
 ويقول للرسول سائلاً :

في أنالهم الهند والصين ألوف وألوف من أجيال البشر الأحياء في هذا
 الزمان ، أفرأى أو علمت الحياة أحسب نفسي حياً لأنهم أحياء . وأرغم
 أنني أعيش لأنهم يعيشون ؟

قال الرسول :

كلاباً بولاي . فإن لهم حياتهم ولشيخ حياته . وفي أعمارهم المملوءة
 ولشيخ عمره المملوء ..

قال شيخ المرة :

نبح الله عليك . لما أما وذلك القاضي الذي وصفت ؟ وما نصيب من
 الحياة أن عاش هو وسمى نفسه أبا العلاء ؟ هو رجل من أهل الصين
 ما سمعنا به في الأواين !

إنما أبو العلاء أبو العلاء حين يعم في أغوار ضميره فيلمح هناك
 هواجس قلبه وشكوك عقله . ومادة علمه واختباره وآثار نعمته وحرمانه .
 وما سهل أو ضيق من أسلامه وأشجانه . وغاية ما يقف من فله أو
 يفتيه . لما أما وقاضي قضائك يا بني ؟ ذره ولا احتاره يعيش كما اختار
 له أراؤه وطلاب عده والنصاف . فإن الصلة بيني وبينه كما قلت لك
 لك الصلة بيني وبين ألوف ممن عاشوا أو يعيشون في أرجاء الهند والصين .
 لما اجتاز صاحبنا من حقيقة أبي العلاء عتبة الدار . ولا صعد منها إلى
 ذروة ولا مط إلى قرار ..

قال الرسول :

فأقول شيخنا أماده الله في الشاعر الواسع نيا حياته ويتم نعيمه .
 ويرتع في الذات العيش كما رتع . وينظم الشعر كما نظم . ولا يحرم
 الشهرة بعد زمانه . ولا الحظوة بين معاصريه وأقرانه .

قال أبو العلاء مبهمة شكرها :

لو سرق أن أعيش عيشه لسرق أن أخلد خلوده وأن أشهر شهرته
 في زمانه وبعد زمانه : فإني نديم يابني وتلك غاية مررتاه . فكيف ترفاني
 (راحة أبي العلاء)

أوثر مكان التذم ومن فوقه مكان من ينادمه ويرجو مسرته ويبتغي صلاته وعطاياه ؟ ..

رحم الله ابن هاني . ما اقرب من الأفق إلا حين قال :

إذا امتحن الدنيا لبب تكشفت له عن عدو في ثياب صديق

ثم أبي أن يمتحنها وامتحنها أنا في كل يوم ، وشرب من يدها الخمر للذة للشاربين وكبرهت أنا أن أقبل الضيافة من عدو بغيف ، ولو لقينته لسانه : ما بالك لم تمتحنها برحمك الله وتركها محنة لك لا تألوك امتحانا في ليل ولا نهار ؟

خذه يا بني إلى جانب قاضيك فما كان لي من أرب في هذا ولا ذاك .

...

فوجه الرسول التلميذ هنية . ثم قال وهو يقدم ويحجم : هل أسأل الشيخ عن الفارسي عمر الحيام ؟

فهش أبو العلاء وقال نعم لسأل ، فبأذا تخالني جيباً أن سألت عنه ؟

قال التلميذ : أحسب أنني فطنت لاختيار أستاذنا من تلك الشخصوس التي عرضت عليه ..

إن أستاذنا ليجتاز الفيلدوف الفارسي وأنه ليرضى من بحثه وزهده ، وأنه ليقنع كما قع برغبته وقدحه وحبيه ، وأنه لينظر بعد ذلك في السماوات والأرضين بعلم المنجم وخبرة الحكيم ، وأنه ليبتوأ من مسيرة الخلف بعد زمانه مكان الهداية والتعليم . لاسكان السمر والديم !

فبدأ على وجه الحكيم الضرب قطوب يسير ، ولكنه قطوب الروية والمراجعة لا قطوب الكدر والانقباض . ومن بين شفتيه كأنه في حديث حوى

أتراني أكون نسخة مقولة من أحد كتابنا ما كان ؟

ثم جهر قائلاً :

كلا يا بني ! لقد كنت أختاره لو أنني غيرت فيه قبل ميلادي وميلاده . أما اليوم فإني في هذا الشبه من أرب : رضى الله عنه فهو أقرب من آثرت وأصعب من أبيت ..

ثم عاد يقول :

لئن خطى بلدة التعاطى لما خطى بقوة الامتناع .. ولئن سكر بغير الدعة لما سكر بغير الأنفة . ولئن جرب اتباع الدنيا خطوة واحدة لما جرب الإعراض عنها خطوات : له طريق ولي طريق ، وربما انقلبنا في بعض الطريق ! ..

ثم صاح الشيخ بتلميذه ورسول تقوم إليه :

ما بالك يا بني ترضى لي كل صورة إلا الصورة التي رغبني من أجلها ؟

قال التلميذ : نعم يا مولاي صورة أن العلاء ؟

قال الشيخ : نعم . إياها أعنى ولا أعنى سواها

فمحب التلميذ عجباً لم يدركه متقدلاً ولا منصرفاً : أبغض الشيخ حياته في النهرم والإنكار ثم لا يختار حين يختار إلا ما نهرم به وأهرق في إنكاره ؟ ..

هذا والله لمو العجب العاجب والخيرة .. الخيرة في قضاء الناس مع الأقدار وقضاء الأقدار مع الناس ..

وكأنما أدرك الشيخ ما يحس به ضمير التلميذ فقال له : نراه عجيباً ؟ أليس كذلك ؟ ..

قال التلميذ : لا أكتحك عجباً فإنت به أعلم . وما أدري كيف شكوت الدنيا ثم كيف تختار اليوم ما كنت تشكو ؟

قال : أضرب لك مثلاً ، فأنما بالأمثال تنجبل المشكلات والمشاهات .

هيك خرجت إلى العالم العريض الرحيب فجعلت لا ترى مزية ولا حسنة ولا فضيلة في أحد من الناس إلا تمنيت ذلك لنفسك : هيك تمنيت من هذا عينه ومن هذا أنفه ومن هذا قوامه ومن هذا فكره ومن هذا عافيته ومن هذا أرزاقه وأمواله ، ومن هذا ماضيه ، ومن هذا حاضره ومستقبله . ومن هذا ملكة الشعر أو ملكة الغناء أو ملكة الحكم أو ملكة التدبير .. وهيك جمعت كل هذا في شخصك فأين تكون أنت بين جميع هذه الشخص ؟ ..

لا تحب فاني مفتيك يابني عن الجواب : إنك يومئذ لا تكون

إنك تكون أنف زيد وعين بكر ولون خالد وسطوة فلان ومال آخرين ولكنك أنت لن تكون وأنت أنت الذي يعنيك أن تكون جميع هؤلاء ، وإذا كنت جميع هؤلاء فلا أنت ولا هؤلاء كائنون .

قال التلاميذ : ألا يتسنى لي أن أحفظ بأساس وجوه ثم أتغنى النوافل والعروض ؟ ..

قال الشيخ : ذلك خطؤكم القديم . فما من عرض إلا وهو داخل في صميم الجوهر ، وما من شرفة في أعلى البناء إلا وللأساس منها عماد ، وإن بصري الذي فقدته لجزء من تكويني لا أنزعه إلا انتزعت كلي معه فلم يبق لي ما أختار به ولا ما أختاره .. ولقد يكون من عوارض الحياة مال يذهب ومال يجيء ، ودار تسكنها هنا ودار تسكنها هناك ، ولكنك إذا كسبت المال وفيك طبع الفقير فكأنما وقع الدرهم في يمين غير يمينك ، وإذا سكنت الدار وخلفت فيها ذكريات شبابك فأنت ساكنها وإن تحولت منها إلى العلوة الأخرى . وإذا وجدت مرة فلن توجد إلا على صورة واحدة في هذه المرة .. وكل ما تختاره بعد ذلك فلنما هو من وحى تلك الصورة ، ليس منه محبس ولا محيد .

كلا يابني .. لن يكون أبو العلاء إلا أبا العلاء !!

بساط الريح

قال الشيخ : الحمد لله استطعنا وفعلنا ...

قال الرسول : إن الفضول ذميمة في كل شيء يا مولاي إلا في طلب العلم والسؤال عنه . أفأذن لي أستاذنا في سؤال ؟ .

قال الشيخ : أحسبك تسألني عما استطعت وفعلت

قال الرسول : نعم . هو ذاك ! .

فصمت الشيخ قليلا كمن يستحضر نفعا بعيداً أو كلاماً منسيا ثم أنشد :

وماء بلادي كان أنجح مشرباً ولو أن ماء الكرخ صباه جريال
فياوطئ أن فاتني بك سابق من الدهر ، فليتعم لساكنك الببال
فان استطع في الحشر آتلك زائراً وهيات لي يوم القيامة أشغال

هذا الذي استطعناه وفعلناه : عودة إلى الوطن وزيارة للمعرة في هذا الحشر الذي حشرتمونا إليه .

فأخذت الرسول شبيطة التلاميذ في كل سن وفي كل مقام . وراح يقول لأبي العلاء : ومع هذا أنت القاتل :

فيساليتني هامد لا أقوم م. إذا نهضوا ينفضون النعم (١)

فأدار الشيخ رأسه ناحية وزم شفتيه قليلاً ثم أجابه : نعم ! ليتني هامد لا أقوم .. أما وقد قت فأي مكان أحق بالحنين من :

بلاد بها نبطت (٢) على تمنائي (٣) وأول أرض مس جلدي تراها

(١) النعم : صناديق الذنوب . وطرف من الجون يلم بالإنسان .

(٢) نبطت : حنقت .

(٣) تمنائي : التهمة : خمرات كان الأعراب ينفقونها على أولادهم لدى العين .

في أصبح جسمي من ثرابها . واحتاط فوق صعيدا وبين أحشائها ..
هذه هي المرة ! .. نعم هذه هي المرة عرفتها وما كنت أعرف غيرها ..
فخذ الله على البحث فيها ..

ههجم التلميذ بسؤال جديد . وعول على الإكثار من السؤال . إذ
لا يحصى من مساواة الشيخ وإن ضجر به من الأحيان ... فربما كان ضجر
الإجابة خيرا من ضجر السكوت سنوات . ربما يفقد الاحتفال ويختلج
التمسك إلى المرة لتحية حكيمة في ذكره .

قال التلميذ في سؤاله الجديد : أليس من عجب هذا الحب للمعزة ممن
عرف الدنيا بأسرها ؟ ..

فجاب الشيخ في غير ضجر ولا تأفف . كأنه كان يتوقع سؤالا كهذا
من تلميذه : ما أكثر عجب الناس مما لا عجب فيه ! إنما يحب الوطن
الصغير من بحاف الوطن الكبير . ومن كره الدنيا كره الثقل فيها وكره
السمي وراءها في نواحيها .. قال أي متقلب يصير غير المكان الذي لا عناء
فيه يتجشده . ولا جديد فيه يفجأه بما يسوءه . ولا يزال فيه قريبا من عهد
صباه قبل أن ينفق مرارة العيش ويمتنع ببلاؤه ؟ وما أخرى من اتخذ
في المرة محبا لا يفارقه أن يتخذ في الدنيا بأسرها محبا هو هذه
ثمرة ! لو فعل غير ذلك لعجبتم منه . فاعجبوا واخفوا العجائب فلعلمكم
تسروحوحون الحياة بعض ما تعجبون له . ولعلمكم أطفال القصر يضحك
منكم حين تسألون ثم يضحك منكم حين تقعون بالجواب . أو تحسبون
إنكم في غنى عن السؤال ؟ يابني سل مايدالك . فقد سألت الغيب كثيرا
وسألت الناس كثيرا . وعالجت السؤال في الدنيا والآخرة . فلا أدري
ماذا أصبح إن لم أكن سائلا أو مجيبا لسائل . وما أخالك ساكتا لو دعوتك
إن السكوت . فتكلم ماذونا فأنتم أزهق الخلق في مباح وأرغهم في
ممنوع . وقد يريخى الإذن لك أضاعف ما يريخى الإعراض عك . فلو
صديقي من فلك حين قلت لم لي أجمل ما يجهلون اطهمت في تصديقك
ياي - بين الرذ بالصدقت أو أقر بأهـ ..

واضطرب الرسول لا يدري أهذا ترخيص في السؤال أم نهى عنه .
واقباض من الشيخ أم تبسط وانطلاق .. وإيه لكذلك إذ عاد الشيخ يتكلم
كأنما قد صرت في نفسه حرارة الشدة على الناس . وإنما لحرارة ترضى
صاحبها عن بثرها ساعة تسخفه عليه . كما يعدو الجواد فرعا فيشمر
بنشاط العدو وجفلة الفزع في آن . وأبو الغلاء ثلث يرضيه الإعراب عن
ثورة نفسه ولا يرضيه طول النكتان لطباعه . فعاد يقول :

« ألا تبتنى يا بني : ماذا تظنون حين تسألون رجلا منها بالعلم فيعجز
عن الجواب أو يباه ؟ أنحسبون الغيب سلطانا يجنى بأسراره الخاشية
المترين ؟ أنحسبون من يصحبه مطلقا لا محالة على كل أمره فلا يخلق
شيئا إلا انهمتموه بالفضن أو الدهاء والروغان ؟ إن كان هذا ما تحسبون
يا بني فالغيب ليس بسلطان . والعلماء ليسوا بخاشية سلطان . وأخرى أن
يكون العالم كامدال (١) في الطلام يعمل مصباحه على قدر ضيائه فهو يرى
ما هناك ولكنه لن يرى ما ليس هناك .. فان سألتم فاسألوا عما يجوز
عليه أو ما يجوز وجوده حيث يراه المدلح وحيث يقع عليه شعاع المصباح .
أما وراء ذلك فالعلماء والجهلاء فيه كما قلت لكم قريب من قريب » .

فتفس التلميذ الصعداء ، وعلم أنها خفية ليست من غضبات الجفاء
والقمة ، وقال وهو يتلثم : لقد علمت ما لم أسأل عنه . فما أسعدني
بقربك أيها الحكيم سائلا وغير سائل . وسترى أيها الحكيم أنني لن
أسألك إلا عما هو في علمك ولن أطلب منك إلا ما هو عندك . فهل أحسب
الشيخ أذنا في هذه الساعة بسؤال . أو أغنيه حتى ياذن ويستريح إلى الجواب ؟ .

فتيسم أبو العسلاء وقد راجع نفسه واسترجع حلمه وأمانته ، والتفت إلى
تلميذه ملاطفا وهو يقول : إن كنت قد تعودت متى ما رأيت وفهمت أنني
لا أغضب منك ولا عليك فتحن على وفق . ولك إذن أن تسأل ول أن أجيبك
أو أغضب كما غضبت منذ هنية . ولا خرج علينا معا في هذا ولا في ذاك ..

(١) المدلح : أدب المقوم سرورا من أول الليل

قال التلميذ : جزاك الله خيراً يا مولاي في غضبك ورضاك : فاقول
الأستاذ في اقتراح لا يشق عليه أن يجيبه ؟ ما قوله في رحلة بين آفاق
الأرض ثم نعود إلى قريته العزيزة في موعد الوعود ؟

فاعتدل أبو العلاء في مجلسه وهو يقول : أو تدعوني إلى الرحلة
وما فرغنا بعد من الكلام على الوطن والقبوع فيه ؟ إنك لا تضع فرصتك
يأني . وإنك لسريع الهجوم ..

فلم يحجم التلميذ ولم يتردد . بل راح يقول : إن يومك يا مولاي غير
أملك . وإن المعرة اليوم لعل مسافة ساعات من بغداد . وإن الأرض
كلها لتطوى الآن في أيام معدودات . فلو لم يكن في السفر إلا تجربة
هذه العجبية المستحدثة في زماننا لكان ذلك شفيحاً في اقتراحه وشفيح
الشيخ حفظه الله في قبوله .

فقال إنصات الشيخ كالستريب المتوجس . وخطر له أن الفئ يفر
به ولا يصدق المقال ، ثم سأل في صوت خفيض :

ماذا تقول ؟ المعرة على مسيرة ساعات من بغداد ! والأرض كلها تطوى
في أيام معدودات ؟! هل عادت المعجزات وهل رجع بساط الريح ؟ هل
أصلحك والعقل أولى بتصديق ؟

قال التلميذ : ما على الشيخ إلا أن يقبل الساعة وسيصدقني ويصدق
العقل معاً بعد ساعات .

قال الشيخ : قبلت . فأين بساط الريح ؟ وأين سليمان بن داود ؟

ثم مضى التلميذ بشرح للشيخ ما يريد ، والشيخ مقبل عليه ظاهر
العجب من كلامه . حتى فرغ من شرحه وهما على اتفاق أن يجوبا بقاع
الأرض في مشرقها ومغربها . وأن يشهدا الأجيال التي لم يشهدا أبو العلاء
ولم يسمع بخبرها . وأن يتعلم كلاهما من صاحبه ما عنده من علم .
ويتخذ دليلاً له فيها بجهل .. فلا حرج من سؤال ولا حرج من جواب ..
وسنسمع . بعد . ما قال أبو العلاء وما قيل له في كل مكان وصلا إليه

حكم السيف

ألم أقل لك يا بني أنني لا أملك أن أرى رأياً جديداً ولا أن أحيى حياة
جديدة ؟

فصارى . ما يملك المرء في هذه الدنيا عمر واحد يعلم فيه كل ما قد
له من العلم ويعمل فيه كل ما وسعه من العمل ؟ ويختبر فيه اختباراً .
ويستوفى منه أحواله وأطواره . فإذا قصاه فثلك حصته من الزمن لا حصه
له بعدها . ولا نصيب له من أعمار الدنيا ورأها .

قال الرسول : والشهرة يا أستاذنا . أليست هي عمراً متجدداً وحصه
مزادة ؟

قال أبو العلاء : كلا يا بني الشهرة استطالة لعمر الشهير : فيها تكرار
له وليس فيها تجديد لشيء منه .. خنمت حصتي من الوقت فلا تنتظر مني
قولاً غير ما قلت . أو رأياً غير ما رأيت .. ولو أطلقتني كل يوم من
دنياك هذه على جديد ..

فأحسن الرسول شيئاً من خيبة الرجاء ... أو لا يسمع من أبي العلاء
كلمة فيها معنى من المعاني غير ما سطرته الأوراق وفرغ منه الحافظون
والشراح ؟! لقد كان يحسب أنه ظافر بأبي علاء جديد . أو بطبعة منقحة
من أبي العلاء القديم . فإذا به يسمع مرة بعد مرة أن أبا العلاء هو أبو العلاء .
وأن حجاب الزمن قد هبط بعده فلا منفذ من ورائه إلى علم غير ذلك
العلم . ولا إلى حكمة غير تلك الحكمة . وأوشك أن يقتضب الرحلة
لولا أنه استدرك وتدبر . فعلم أن مشاهدة الدنيا في صورة علاية أمر
يستحق النظر ومعرفة تستحق العرفان فانطلق يقول :

إذن يا مولاي أنا أعلم رأيك في هذه الحكومات العسكرية التي تركنا

بلادها . أو هذه الأمم التي يجرون على وثيرة لا يثقلون عنها ونظام لا يهاودون فيه .. أنت تحمدها بعض الحمد لأنت تقول :

واخش الملوك وتبايسرها بطاعتها فالملك للأرض مثل الماطر الساق (١)
أن يظفروا فلهم نفع يعاش به وكم حديدك برجل أو بفرسان
وهل غلبت قلوب من جور ومظنة أرباب فارس أو أرباب غسان

وهذه الحكومات الهندية تحمى من الفوضى ولها نفع يعاش به في أزمان التقليل . وهي تزعم ألا حرية للناس في قديم الزمان أو حديث . ففي كل حكومة جور ومظنة . والحكم هكذا يكون . أو لا فهو فنة وظالم مكنون ..

فأضى أبو العلاء طويلا . ثم قال : ولكني كما قلت هذا قلت كذلك : ومن شر البرية رب ذلك يريد رعية أن يسجدوا له !

وهؤلاء الحاكمون يقولون إنهم معصودون وإنهم لا يخاسون . وإنهم أرباب يدن لها بطاعة الساجدين الراكعين . لا أحق هذا وما أحرأه ألا يكون بين الناس يعقلون ..

قال الرسول :

الحق ما تقول مولاي . لولا أن الرعية تحب هؤلاء الحاكمين ولا تطيعهم إلا وهي راضية بما تطيع .

فلم يزد أبو العلاء على أن أعاد بيته القديم :

تارا باطلا وجاوا صارما وقالوا صدقتا . ففلا نعم

فعاد تلميذه بخاوره وكأنه ذو هوى في تعظيم مذاهب الحكم عند هؤلاء العسكريين . وقال فيها قال :

(١) لسان المشرق في

إن هؤلاء القوم لا يخضعون على كره منهم . ولكنهم يخضعون لأنهم يؤمنون بإيمان الحاكمين ويفكرون تفكيرهم ويريدون مرادهم ويفرحون بعظمته كأنها عطمة لم فيها نصيب . وكأنهم شركاء في السيادة حين يخضعون لأولئك السادة .

قال أبو العلاء :

وما أعجبتني لابن آدم شيمة على كل حال من مسود ومساند

ذلك آدمي وأمر . ولبنهم فكروا وخالفوا وخصموا ورغبت . فذلك أكرم لعقل الإنسان وأدنى إلى الرجاء في الخلاص . أما أن يسلب الإنسان الفكر حتى لا يفكر إلا بأمر حاكمه وعلى وفاق الهوى من رؤسائه . فذلك آلة من الآلات وحيوان من العجماوات . وليس بأدنى له عقل . والعقل إمام للأدبيين أولى بالاتباع من كل إمام .

...

قال أبو العلاء ذلك وزوى وجهه كأنه قطع القول وحسم الجدل . وقال مالا رجعة فيه ولا مزيد عليه .

إلا أن التلميذ قد طالب له أن يترسل في المناقش والأسوال فاشقى يقول : أو لا تخفر الطاعة من الرعية حتى لو أفلح الرعاة في سياسة الأمور وشاهد الناس فلاحهم آتة بعد أخرى . ففعلوا أنهم راشدون وأنهم لا يخطئون . وإن خطأهم آمن في عقباء من خطأ الكثيرين ؟ .

فسأل أبو العلاء : من القائل :

يسودون الأمور بغير عقل وينفذ أمرهم فيقال ماسة !

فأجاب التلميذ : كيف ؟ إنك أنت قائل هذا يا مولاي ! .

قال أبو العلاء : ذلك فحوى كل جواب على كل سؤال من قبل ما سألت ... فلا تنظر يا بني إلى فلاح هؤلاء الساسة حين ينفذ أمرهم ويستقر سلطانهم وتغضى مشيتهم . بل انظر إليهم حين يمشلون وحين

يريدون فلا يقبلون .. انظر إليهم يومئذ تعلم أنهم يخطئون كما يخطئ
سائر الناس وأكثر مما يخطئ سائر الناس . بل تعلم أن الناس يريدون لهم
من الخطأ يومئذ أكثر مما صنعوه وأكثر مما يستطيعونه أو استطاعوه .
ولا تنس أبداً قول الحكيم القديم :

والناس من يلق خبراً قاتلون له ما يشتهي ولأم الخفي اغل (١)

...

واذكر يا بنى أن هؤلاء الجيوش المبتدين يتعلمون الجبن حين يتعلمون
ما تحببه شجاعة ... وإن أشجعهم لن يجرؤ على كلمة يفضب بها سيده
وصاحب أمره .. وما بق بعد ذلك من إقدام على القتال أو الشجار . فهو
إقدام اضطرار . أو إقدام غمور بحميا (٢) الضجيج والمخار ..

وما أبرئ نفسي يا بنى . لقد عرفت هذا الجبن وقت فيه :

لجأت إلى السكوت من السلاحى (٣) كما لجأ الجبان إلى الصراخ
ويجمع شتى الشفتين صمقى وأنخل فى الحافل بافترارى
هؤلاء كلهم يا بنى فارون من المنطق والكلام ، جبناء يهربون من الميدان
إلى السمى الذى تدعوه طاعة أو تدعوه شجاعة ، وما هو من الطاعة
والشجاعة إلا كالرجل وصورته فى المرآة .

...

قال التلميذ : وإجمال ذلك كله فى كلمة واحدة يا مولاي

قال أبو العلاء : إجمال ذلك كله يا بنى فى بيت واحد . وهو :

ساس الأنام شباطين مسطرة فى كل أرض من الوالين شيطان

...

واعض بذلك الجدل بين الشيخ وتلميذه . وهما قاضيان من بلاد

الحاكمين العسكريين ..

(١) الغل : التكل .

(٢) حميا : شدة غضب وأوله . ووجه اشتراك

(٣) السلاحى : السلاحى : تلادوا ونشأوا .

المستشرقون

هؤلاء الذين استغربت أمرهم يا مولاي . هم من صبيانهم نحن
بالمستشرقين ! وهم أناس لم يسمع بهم الأستاذ لأنهم نشأوا أول نشأتهم
فى عصره . فكان أقدّمهم يتعلم العربية والحكمة على عرب المغرب يوم
كان الأستاذ يعمل دروسه القيمة فى المعصرة قبل عشرة قرون ، وكانوا
فسيين ورهباناً يدرسون علوم العرب ليفقهوا أسرار القرآن ويستعملوا
لها بالحجة والبرهان ، ثم شاع أمر الدولة المسيحية وأمر الخلاف على
الأجبل بين سبىها الأعظم ومن خرجوا عليه واعتزلوه .. فن ثم كثرت
طوائفهم فى بلاد الجرمان ولا يزالون أكثر ما يكونون بين هؤلاء القوم .
ولا سبى وهم قوم مشغوفون باللفظ والبحث فى الأصول واللهجات .
فهذا علم ما استغربه الأستاذ من شيوع الاستعراب هنا حيث نحن الآن
مقيمون . وأنهم من أجل هذا يحومون حول هذا الورد ويتفهمون هذه
الساحة ، ولا يريدون أن يعبر بهم حكيم المعصرة دون أن يوسعوه حفاوة
وسلا ولا يتخلوا من كلامه بياناً يقتضون به ودعاية يدعون إليها . فان
شاء الأستاذ أن يصابرهم ويستقصى خبرهم فله رأى الأعلى فيها
بشاه ...

ذلك كان حديث التلميذ لأستاذه بعد رحلة ليست بالقصيرة قضياها فى
بلاد الجرمان . ولقيا فيها لثلاث من المستشرقين سمعوا برهين الخيمين
فزاروه واستزاروه . وسألوه وأجابوه ، وعجب أبو العلاء من شأنهم فى
بلاد الغرب فسأل تلميذه عنهم على سبيل الاستطلاع أو على سبيل
الفضاض . لكثرة ما أطلال عليه من سؤال . وكثرة ما انفس عنه من
قائده . وكثرة ما كلفه من تجوال .

فلما أتياه التلميذ بنأهم قال أبو العلاء :

استمع العرب فى المواقى (١) بعدك واستعرب البيط

(١) المواقى : جمع موقاة وهي العلاء

ثم قال :

أين امرؤ القيس والعلدارى إذ مال من تحته الغبيط (١)

وجعل يردد : أين ؟ أين ؟

ثم عاد يقول : هيهات ! هيهات !

هذه فئة عهدنا لها أشباها بين رهبان زماننا ، يدرسون العلم دراسة رهبان ولا يزالون رهباناً في كل ما يدرسون . فهم يحجون إلى العلم من طريق الدين ، وقلماء يعرفون العربية إلا بلسان أعجم ونفوس أشد عجمة . وأقربهم إلى البصر بها من كان للعلم قصده وكانت له في لغة قوم قدم : وهم جامعون ومحيطون . دأبهم كدأب كل عيط يقف عند الأطراف ولا يتقدم منها إلى القلب . ولم على ذلك ما استحقوا من جزاء . وثناء . . .

ثم قال : ومن هؤلاء الذين تسألني أو تأمرني أن ألغاهم الساعة ؟

قال التلميذ : أستغفر الله يا مولاي ، فالأمر والرأى لك . وإنما هو اقتراح أو رجاء ، وأنت ما ترضاه من قبول أو إياه ..

هؤلاء الصحفيون يسألون . وقد عرفت طريقتهم في السؤال . فإن أدنت لقيتهم جميعاً مرة واحدة وأفضيت لهم بخبر ما هم مستخبرون . فلا نجاة منهم قبل أن ترسل من هذه الديار

فاستسلم أبو العلاء . وأوماً قائلاً : على بهم مجتمعين ! لما أتمها حتى كان واحد منهم على الباب ، وكان يتلو خطاباً قد استظهره وتصنع لائقاته . وجاءته بعد كلام طويل :

« اننا ننقل منك في بلاد الجرمان رجلاً من أهل الشمال وإن كان مولده في الجنوب . وعقلاً من عقول الآريين وإن كان منسوباً إلى الساميين . وشاهدنا جديداً على صدق علم الأجناس الذي كشف لنا حقيقة

(١) الغبيط : رجل النساء ينسج عليه المروج .

النيوخ ودخيلة المزاج والأخلاق بين الشعوب . فلا فضل ولا عصرية ولا ارتقاء في الآداب والفنون ، ولا في العقائد والأخلاق إلا أن يكون مردها جميعاً إلى أبناء الشمال . وإن خفيت مصادر النسب واختلفت مواقع الميلاد .

ولو لم تكن أبها الرجل العظيم من سلالة الآريين لما اتصل الروح بينك وبين الهند فرايت ما رآه اليوزيون وحرفت ما تحرفون . وأنت ما يبيحون . فانت الباهي عن لكل أحيوان وجباه حيث تقول :

تق الله حتى في جنى التحل شرته لما جمعت إلا لأبصار التحل

وأنت الناصح باحراق الموتى وإن عجبت منه حيث تقول :

فأعجب لطريق أهل الهند ميتة : وذاك أروح من طول التبايع
إن سرقوه لما يمشون من ضيع : تسرى إليه ولا تخفى (١) وتطريح
والنار أطيب من كافور ميتنا : فما وأذهب فانسكراء والريح

. . .

وأنت المتكر كل ما ذهب إليه البشر إلا مذهب الهند حيث تقول :

عجبت لكسرى وأشياعه : وغسل الوجوه بيول البقر
وقول النصراني اله يفضا : م وبطم حيساً ولا يتحصر
وقول الهندود اله يحب : رشاش الدماء وريح القتر (٢)
وقوم أتوا من أقصى البلا : د لرى الجمار ولثم الحجير
فوا عجبا من مقالاته : أيعنى من الحق كل البشر ؟ !

ولاح على الرجل أنه منطلق في تحيته إلى غير نهاية ... فلم يمهله أبو العلاء حتى يأتي على شواهد وأمثاله ويستطرده إلى نتائج وغاياته . ومال إلى تلميذه ورسوله يقول وكأنه يساره : أين يذهب عن هذا الثرثرة قولي :

(١) عن الفراء : أخبره وهو ما بين الش .

(٢) راحة العلم المردود .

« غسل الوجوه بيول البحر » ؟ أليس لأهل الهند فيه نصيب ؟ ثم قاطع الصحن الخطيب سائلا :

« ماذا تعنى بـ ساميين وآريين وأهل شمال وأهل جنوب ؟ »

فأسرع التلميذ يجيبه قبل إجابة الصحن : « إنهم يا مولاي يعتقدون اليوم في بلاد الجرمان أن البشر جنسان : جنس مخلوق للسيادة والحكم . وجنس مخلوق للطاعة والتسخير . وأن أهل السيادة منبثمين في الشمال ثم انحدروا من بني سعد ، فهم المعروفون بالمهدين الآريين . وأن أهل الطاعة والتسخير منبثمين في الجنوب فهم الساميون أبناء سام أو الحاميون أبناء حام . ومن شاكلهم في السحنة والساد ، وأنه ما من نابغ عظيم إلا وهو مردود إلى أهل الشمال في معدنه وعصره قريب . وإن ظهر بين أبناء الجنوب .. ولعل شبهتهم في انتمالك إلى الشمالين يامولاي : إنك مولود على لمرجة العقاب والروم ... »

فانتفض أبو العلاء انتفاضة العربي المسبوب في نسبه وصاح بالتلميذ : ويح الرجل ! ماذا عساه أن يريد مني بعد هذا التخليط ؟ قل له إن كان لا يسمع مني .. قل له أما القاتل :

لا يفخرون الهامى على امرئ من آل بربر
فالحق بخلف ما على عنده الا كفتير

وذلك حصه من جواب ..

ثم همم صحن آخر يبدو عليه الاغتياب بما سمع من زجر زميله . وأقبل يقول : تحية الاخوان إلى العربي العظيم : أما ابن من أبناء سام .

فهم أبو العلاء بالبهوض وهو يكاتم لسخط والضجر . وقال : أما فرغنا بعد من سام وحام ؟ من هذا يابى ؟ وهو يوجه السؤال إلى التلميذ الحائر بين أستاذة وبين طلاب الريادة والهدال ، من صحفين ومشرقيين

ومستطلعين . فبادر الصحن الآخر إلى جواب أبي العلاء . وتلطف في تسكين غضبه والترفيه من ضجره . وأنبأه أنه من أبناء اسرائيل . وأنهم والعرب أبناء عمومة . وأنه يريد منه كلمة الفصل في خصومة الآريين والساميين . وأنها قلما تنفع في بلاد الجرمان وقلما يجسر على بشرها بينهم أو اشتر كلام يخالف ما يروجونه من أقوالهم . ولكنه يبعث بها خفية إلى أناس يذيعونها في الخافقين . ويعتزون بها في خصومة الحسنين . وفي كل خصومة بين طرفين . أحدهما آل اسرائيل !

وهنا أدركت أبا العلاء فكاهته المطبوعة وصخره من (تراجم الأضداد) على قديم الأجداد . أو على ميراث المال والعتاد . وهم يلهيئون بحيرات الآباء والأولاد ، وقال وقد نبأ القسبر وثأ يده بمنلر بموعد القطار ووشك الرحلة وخوف التأخير :

(يا أخى : تلك خصومة لا يفصل فيها غير الله ! أنه شهب الله المختار في القديم ، والجرمان شهب الله المختار في الحديث . فاسألوه ولا تسألوني أيكما صاحب الخطوة الآن ؟)

مع المشيعين

هبطت السكينة على نفس أبي العلاء.

وقيل له : إنك في أمان . ليس لأحد عليك من سلطان . وإنك ممن قيل فيهم . لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . . خرجت من العالم الثاني فلا تحتد إليك يد ولا يملك أحد من الناس بعدوان . قفل ما بدا لك من رأى . ولا تظن نفسك إن نعلت بالحق ولا ترفع رأسك إن نطقت بالمال . أنت اليوم غيرك بالأمس : أنت اليوم من الخالدين !

وإنما قيل له ذلك لأنه صارح بعض الجرمان وهو في بلادهم بذهبه في اختلاف الأجناس وتفاوت الأقوام . فشحبه (١) وهو أن يعلشوا به على نفوس بلادهم . أو لا أن ردتهم عنه هذه الحصانة التي لا حصانة مثلها للمحاسن النبوية ولا للهيئات الوزيرية . . وهي حصانة الملوك .

فلذا كان ملكه مع جماعة المشيعين أو الشيوعيين حين نزل بأرضهم غير مملكة اليهود من النقية والمداواة والصمت والقرار . فقال ما أراد أن يقول . ولم يعبأ منهم بزجاجة ولا صليب ولا وعيد .

وقد رثق من رفقاتهم يخطب في حفل جمعوه لترحيب أبي العلاء . أو للشيوعى العرب القديم كما أسوره . فقال بعد اسباب وترديد :

هذا أبنا الرفاق رجل ما قد سبقنا بكل رأى من آرائنا وكل دعوة من دعواتنا : فمن نحن ننكر التفاوت في قسمة الأرضاني وهو يشكره في كل صورة من صورته . وكل منحنى من مناحيه . فيقول عن التفاوت بين العالمين وأصحاب الأموال :

لقد ساء لنا هذا الشتاء ونحسسه فقير ممرى أو أمير ملوج وقد يرزق اليهود أقوات أمة ويغرم قوتا واحدا وهو أحمق

(١) شحبه . شحب الرجل امرئ . وشحبه من حاجته .

ويقول عن التفاوت بين الشاب الفقير وهو أولى بالمسال وبين الشيخ الموسر وهو مدبر عن الحياة :

يعيش الفتى في خدمة عبث راعب ويبنى من قلمهينة سامر

ونحن ندعو إلى التآزر الاجتماعي والتكافل بين العاملين في الأمة . وهو قد نادى بذلك من قبل فقال :

الناس للناس من بدو وحاضرة بعض لبعض وإن لم يشعروا بخدم

ونادى بخدمة الحاكمين للرعية فقال :

إذا ما تبينا الأمور تكشفت لنا وأمر القوم لقوم نخادم

وقال :

مثل المقام فكم أمانر أمة أمرت بفسير صلاحها أمراؤها

ظلموا الرعية واستباحوا كبدها وعدوا مصالحها . وهم أجراؤها

واستطرد إلى أبعد من هذا في التكافل بين أعضاء المجتمع الإنساني فقال :

وكل عضو لأمر ما يمارسه لأمشي للكف . بل تمشي بك القدم

بل استطرد إلى أبعد من هذا في المساواة فقال :

إن شقا يلوح في باطن البثرة قسم بين الضعيف

ولقد بينا نحن للناس أن الآداب والعقائد إنما هي مصالح الطائفة الخائفة

نصوغها على هواها لتدعم سلطاتها والعلية حل من دولتها . وهذا الحكيم

العربي قد بين ذلك حق بيانه حين قال :

إنما هذه المذاهب أسبا ب لجلب الدنيا إلى الرؤساء

وحين قال في إظهار سطوة المال وقدرته على تحويل الآداب وتخويل

الحقوق :

المال يسكت عن حق وينطق في بطل . ونجم لإكرامه له اشيع

وبجزة القوم صدمت عنهم . فعدت مساجد القوم مقرونا بها البيع

ونحن بشرنا بدين العقل ، وهو مبشر به في قوله :
 سأتبع من يدهو إلى الخير جاحداً وأخرج منها ما أمامي سوى عقل
 ومثل ذلك قوله وهو يسير من كثير :
 كذب العن لا إمام سوى العقل مقيداً في صبحه والمساء
 بل نحن نردنا تفسير التاريخ ، تفسيراً مادياً ، كما سمعناه وهو قد أشار
 إلى ذلك فقال :
 الناس للأرض أنبأع إذا بخلت ضنوا وإن هي جادت مرة جادوا
 والمع إلى ذلك مرة أخرى في هذا البيت على سبيل الرواية :
 قالوا البرية فوضى لأحسابها وإنما هي مثل الثبت والشجر
 وزاده توضيحاً وتقريباً حيث قال :
 لم تجذبوا للقيح من فعالكم ولم يجثكم لحسن التوبة المطر
 ولا أبلغ إذا قلت أنه ذكر الاشتراكية بلفظها في اللغة العربية بيت من
 أبياته العامة يقول فيه :
 لو كان لي أو لغيري قدر أنملة من البسيطة خلت الأمر مشتركاً
 وأنه قد أتى على طبقات الفضولين المتطفلين على المجتمع الإنساني بغير
 عمل ينفعونه به حيث قال :
 ويمحني دأب الذين تروها سوى أكلهم كد الفوس الشحاح
 وأطبب منهم طعماً في حياته ساعة حلال بين عاد ورايح
 فهو بأنف من الطفل الاجتماعي أياً كان المتطفلون ولا يبيع القوت إلا
 لمن يكسبونه ويستحقونه ، وهو قد فرق في قصائده ما اجتمع من مبادئ
 المذهب الاشتراكي في كتب الأساطين ومباحث الدعاة العلميين ، وذلك
 مرتبة ترفع على أبناء عصره درجات ، وتجعله من أئمة الفكر في تاريخ الإصلاح
 بين الأقدمين والحدثين ..

ثم اقترح الخطيب على سامعيه أن ينفذوا جميعاً لبشروا نخب الشاعر
 الذي جمع من مبادئهم في منظوماته ومثوراته ما لم يجتمع قط في كلام أحد
 من الشعراء ..
 نهضوا جميعاً وشربوا أفداحهم وقوماً . ثم جلسوا يترقبون وقفة الشيخ
 بينهم ليجيب على التهمة والتكريم ويجب على بيت الخطيب بهديد من
 مقاله أو قديم . والشيخ لا يعلم أنه مطلب بالوقوف أو مطالب بالتعقيب .
 حتى به الرسول الذي يصاحبه في كل مكان إلى ما يترقبه القوم . ثم أخذ
 يده إلى المنصة فزل الصمت على الحاضرين . وانقضت هنية لم يسمع
 بها إلا شيخ المرة وهو يقول بصوت رفيع ولكنه ليس بالضعيف :
 (أنتم مشكورون على جميل ثنائكم واحتفائكم بهذا العاجز المساك
 من أبيكم . لكنه حار في موقفه هذا لا يرى منعه من ذلك . لا شتر كرس
 أو مذهب التفسير الساذج لتاريخ . فأما قوله .
 لو كان لي أو لغيري قدر أنملة من البسيطة خلت الأمر مشتركاً
 فدعا يعني به التوحيد الإلهي ويريد به أن الناس أغنياءهم وفقراءهم على
 حد سواء لا يملكون في جانب الله أرضاً ولا يستعبدون أحداً . وهو من قوله
 ويقول داري من يسول واحدي مع فالعبد لربها والدمر
 أو هو من قوله
 ما في بني آدم من غنى فكلهم مقسّر عديم
 يفتي الذي ماله فناء وذلك الواحد أقدم
 أو هو من قوله :
 فقير كل من في الأرض من . ان العبد لا يملك
 أو هو من قوله :
 إله الأنعام ورب السما م لسالفك دونك وأملك لك
 لا أدري من أين تسربت الاشتراكية . إلى معناه كما تصفونها فيها
 سمعت من خطب وقرأت من بحوث وشروح .

ما أردت إلا الرفق بالناس . بل ما أردت إلا الرفق بجميع الأحياء ..
فكنت أوصي السيد أن يرفق بعبد . وأقول له :

إذا كسر العبد الإناء فعده أذاة له . إن الإناء إلى كسر
وكنت أوصي العبد والفقير أن يرفقا بالهيبة الخرساء . ويربني منها .
ما قلت أنه يربني .

لقد رابى مقدرى الفقير بجهله على الغير ضربا . ساء ما يتقلد
الرفق الرفق .. والرحمة الرحمة . ذلك ما أردت وذلك ما دعوت إليه ...
وما دار في خلدي يومئذ إلا الزكاة بؤديها أهل السعة للمضيقين .

إذا وهب الله لى نعمة أفدت المساكين بما وهب
جعلت لهم عشر سقى الغدا م وأعطيتهم ربع عشر الذهب
وكنت أعجب :

كيف لا يشرك المضيقين فى النعمة أقوم عليهم النعماء
وأوصى بما وصى به دين الخنيفة :

وأحب الناس لو أعطوا زكاتهم لما رأيت بنى الإعدام شاكرين

أما أن يأتى زمان ينقطع فيه الفقر ويبطل فيه الغنى وتؤول فيه السيادة
إلى العاملين المستضعفين على سنة التساوى وشرعة المزاملة فذلك ما أنبا
به بعض المنبئين فى زماننا فقلت راوباً ومجيباً :

يقال إن سوف يأتى بعدنا عصر يرضى . فتصبط أسد الغابة الخطم (١)
هيات هيات . هذا منطق كذب فى كل صفر زمان كائن قطم (٢)
ما دام فى الملك المربخ أو زحلى فلا يزال عباب الشر يلطم
وأقودا اليوم مرات : هيات هيات ! وما أنتم فيه مصدق لما أقول .
وإن أعجبكم أن تسمعوا منى خلافت الممقول والمنقول . وأين لومى الرؤساء

(١) جمع خطام وهو ما يوضع فى أنف العير ليقاه به .
(٢) اتقلم : انتباه الحم .

على اتخاذهم المذاهب أسبأاً لطلب الدنيا إليهم من قولكم إن المذاهب
لا ينبغي أن تكون إلا كذلك ؟ إنما أقول على سبيل الإنكار وأنتم تقولون
على سبيل الإقرار . وشأن ما أردتم وما أريد .

بل ما لكم لا تدعون أنى ناديت بمذهب الفوضى حين قلت :
إن أكلتم فضلا وأنفقتم فضا - فلا يدخلن وال عليكم
لا تولوا أوردكم أيدي الناس من إذا ردت الأورد إليكم

وما ناديت بالفوضى ولكن أردت انقاء الولين بالعفة والزهادة

قالو المعرى ذلك وكأنما كان متجليا عليه فى تلك الساعة قوله :

إن عذب المين (١) بأفواهكم فان صدق بقمى أعـذب

ولم يكن متجليا عليه قوله إنه يفر بالصمت فى الحال ..

أما ما حدث من أثر هذا الجواب فى نفوس السامعين من معاشر الشيوعيين
فهنى عن السرود والإفاضة . وحسبك منه صبيحة الرسول فى أذن الحكيم :
كنى كفى أمها الأستاذ الرحيم . ! فإلك إن كنت على نجوة فى حصانة
الخلود . ما أنا بن القوم من الناجين ١ .

(١) المين : الكذب .

في بلاد الشمال

خرج المعري وتلميذه من أرض الشيعيين وهما يلعبان الديار والديارين وأصبح التلميذ ولا هم له بعد إفلاته من برائن القوم إلا الوصاة بالتقية والمحاذرة ، قائلاً ومعيداً ما قال : مولانا الشيخ ! إنك في حرز من ضيم الأقوياء ، وأمان من سطوة أبناء الفناء . أما تلميذك ومريدك فلا حرز له منهم ولا قوة له معهم . ولا أمان أن يبطشوا به بطشة واحدة . فإذا أنت يامولاي . قد فقدته في منتصف الطريق . وكان الشيخ يداعبه فيظهر الإصرار على المناقشة والمناوشة ويردد ما أنشد في سابق أيامه بدار الفناء :

إن عذب الدين بأفواهكم فإن صدق بضمي أعذب

قائلاً : يا بني ! ما أنا بصاحب الرحلة بل أنت .. فاصبر على بلانك واحتمل عاقبة رأيك . فينتفض التلميذ خوفاً وحيرة ويعيد الوصاة والرجاء . مناشداً : ولله الرحمة التي أرادها لبي الإنسان وبني الحيوان .

فلما أطال التلميذ في وصاته قال الشيخ : ما بالك يا هذا تخاف وتوصي وتلحف في الوصاة ؟ ألم لك ذاهب بنا إلى معشر من الناس كأولئك الذين كنا بينهم ؟ إن كان ذلك فقد بنا إلى المعرفة واختصر بنا مسافة هذه السباحة . فلا طاقة لي بمخافة قوم آخرين كأولئك الذين فارقناهم في بلاد الشيعيين ولا بمخافة قوم كأولئك الذين فارقناهم في بلاد الطغاة العسكرين .

قال التلميذ : كلا يامولاي الجليل . ما إلى هذه البلاد وأماننا نرحل . وإنما أخاف ما ليس في الحسبان .. إنما رحلنا بعد اليوم إلى أقوام يحجرون على المقال حجر أولئك الأقوام ، ولا يقررون الناس على رأي واحد وضيم واحد . ولكنهم يقولون ما يشاءون ويفكرون كما يشاءون : فإن خامرني الخوف ونحن مقلون عليهم فلذلك يا مولاي خوف الجبل . بعد خوف الثعبان ..

وطالت الرحلة في تلك البلاد بلاد الشمال . وتقلب المعري وتلميذه بين أهل الترويح وأهل السويد وسائر تلك الأنحاء . فحمداً كثيراً من الأحوال . وشهدا أنماطاً من الحكم والعلم لم يشهداها في البلدان الغربية كافة . فطاب السرى وطاب المقام ..

ونزلا آخر المطاف ببلاد الدايين أو الدنمركيين . فهما الآن في مدرسة جامعة دعى إليها حكيم المعرة بأمر من ملك البلاد ووزرائها . على عادة القوم في اغتنام كل فائدة وتسجيل كل شاردة وواردة . ليسألوا الشيخ ويستطلعوا طلعهم . ويساجلوه القول ويظفروا بما شاء من جواب .

قال طالب علم : أياذن الشيخ في سؤال عن حكومة ذلك المعشر الذين كان بينهم قبل أن يرحل إلى أقطار الشمال . وأعني بهم معشر الشيعيين ؟ قال الشيخ : تلك حكومة كلها طواهر تخفى ما دونها من البواطن . كاتبها يفعل فيها ما يريد . ولو جرى أمرها على القول الصراح لما كان لهذا الكاتب من صولجان . إلا القلم والقرطاس .

فعاد الطالب يسأل : أو ليس الأمر بين ذلك الكاتب وزملائه على سنة الشورى والمساواة ؟

فامتعض الشيخ وأدرك الطالب بالجواب قبل أن يسترسل في السؤال : مه يا بني مه ! أي شورى وأية مساواة ؟ لقد سمعنا بعضهم يلوم من يخاطب ذلك الكاتب بكاف الخطاب كما يخاطب سائر الناس ! أعندك يا صاحبي قصيدة شاعر القازاق الذي أنشده مدحاً ونحن هناك ؟ قال الشيخ هذا والنفت إلى التلميذ الرسول . فوقف التلميذ الرسول مانحاً على المنصة وقال : نعم يامولاي ! .. ثم مضى ينشد قصيداً يقول فيه ناظمه :

« هل أشبهك بالأنبياء ؟ كلا فبعض الأنبياء يكذبون .

« هل أشبهك بالبحر المحيط ؟ كلا ! ففي البحر المحيط صخور يتصدع عليها السفين ..

« هل أشبهك بالجبال ؟ كلا ! فما من جبل إلا وقته في مرأى العيون

هل أشبك بالقمر ؟ كلا ! .. فالقمر لا يضيء إلا في لياليه ..

هل أشبك بالشمس ؟ كلا ! فالشمس إنما تشرق في يوم صحر لا غمام فيه .

وفرغ التلميذ الرسول من إنشاده فعاد المعري يقول لطالب العلم الذي سأله ذلك السؤال : أو سمعتم أعجب من هذا الدهان (١) في مديح عامل أو سلطان ؟ ما أخالكم سمعتموه ، وما أخالكم تذكرون في الملوك ما كنا واحداً كان له من الأمر النافذ في الرقاب والأذهان . ما يأمر به كاتب الشيوخين فيطاع ..

وسأل سائل : أو لم ينصفوا الأجراء من أصحاب الثراء ؟

قال المعري : لا يابى . إنهم ظلموا أصحاب الثراء ولم ينصفوا الأجراء . ولقد أخذوا المال من ذوبه ثم أفرغوه في مصانع الدولة . وما الترقى بين مال في أيدي الثحار ومال في أيدي الولاة ؟

ورجع السائل إلى سؤال لاحق بما تقدم فقال : لكنهم على ما يقولون قد عدلوا في الأجور بين العاملين فأجر اليوم واحد لا اختلاف فيه .

قال المعري : أجر اليوم واحد لا خلاف فيه ولكن التسامح المخطوط عندهم قد يعمى عدة أجور ، فهي مساواة من ناحية واختلاف من عدة أنحاء وفرغ السائلون عن معاشر الشيوخين فنهض السائلون عن أمم الشهاب .

قال طالب علم : أعمل الأستاذ قد حمد من قومنا ما ليس بحمد من أولئك الأقوام ؟ ..

قال المعري : نعم ولا أداجيلك يابى ... فقد رأيت أنكم أبعد الناس من مدحاجة ، وإن بقيت منها أثارة في جميع بني حواء .

قال الطالب : وماذا حمد الأستاذ مما شهد فينا ؟

قال المعري وهو يوجز في جوابه : حمدى منكم يابى تجارتكم التي يقيمونها على التعاون بين الباتين والشارين . فما منكم إلا من يأخذ

(١) الدهان : دهن صاحبه : غشه وأظهر له خلاف ما يستر .

كفائته ويعطى كفاية الآخرين . ولا ربح لأحد منكم خاصة . بل أنتم جميعاً رابحون . لأنكم بائعون شارون .

ذلك يابى سبيل قوام بين احتكار المستكرين وبين اشتراك الشيوعيين . وإذا اعتدى إليه الناس جميعاً فلههم يستريحون من غريظ هؤلاء ومن يفرط هؤلاء .

وحمدت منكم يابى أنكم لا تفتحون البلدان ولا تفتحون الأسواق . وأنتم مع هذا غافلون وأنجون . لكل سلعة من أرضكم طالب غير مغبون وحمدت منكم يابى تعلم الفقير وتعلم الضعيف . ولما من طفل بينكم إلا وله مدرسته وله معلمه . وإن أهمله أناس في بلاد أخرى لضعف فيه أو لقصور ظاهر عابه ..

وحمدت منكم نظافة وصحة ورخاء نعم الأكثرين ولا يجرمها إلا القليل وحمدت منكم رعاية الشيخ الكبير . فلا يثقل (١) عندكم ولا يثقلون عليه بالرزق الكفاف ..

وحمدت منكم -- وعمرشكم أعرق العروش في أرض العرب الحديث -- نواضعاً في الملك لا يرى من أحدث العروش .

حمدت منكم هذا كله فهل هو كثير أو يسير ؟

فصاحوا جميعاً : بل هو كثير كثير . من الشيخ الكبير .

قال المعري وهو يبتسم : أناذنون لي -- بعد -- أن أحمد منكم شيئاً آخر فوق ما حمدت ؟ أناذنون لي أن أحمد منكم الإيجار في السؤال والتقصد في المقال ؟ ..

فكان سكوت ، وكان ضحك ودعاء . وكان ذلك جواب الشيخ الكبير من سائله ..

(١) يثقل : يفسد ويكره .

... (1) ...
... (2) ...

... (1) ...
... (2) ...
... (3) ...
... (4) ...
... (5) ...
... (6) ...
... (7) ...
... (8) ...
... (9) ...
... (10) ...

... (1) ...
... (2) ...
... (3) ...
... (4) ...
... (5) ...
... (6) ...
... (7) ...
... (8) ...
... (9) ...
... (10) ...

... (1) ...
... (2) ...
... (3) ...

... (1) ...
... (2) ...
... (3) ...
... (4) ...
... (5) ...
... (6) ...
... (7) ...
... (8) ...
... (9) ...
... (10) ...

...

قال الشيخ : هي صناعة قتل سهلت أو صعبت . فما لكم لا تتركون للمرأة صناعة الولادة وتدعون صناعة القتل لغيرها كما قال أخو مخزوم ؟ وما لكم لا تجعلون جيشها كماه على مثال تلك الجيوش التي حدثتني أنهم يشتدونها في بعض البلاد . لتقوم الأبدان والصولة بياس الجمال ؟
فأسرع التلميذ يقول : لعلها الضرورة يا مولاي ! لعل المقاتلين لا يستغنون عن مدد من النساء إذا قل الرجال ..

فأدركه الشيخ قائلاً : بل إذا قلت الرجولة وأصبحت الحرب وليست هي من الفروسة ولا من البطولة .. ما أحسب الآفة عندكم أن النساء أصبحن كالرجال . وإنما الآفة فيما أخال أن الرجال أصبحوا كالنساء . فلا حرج إذن من المساواة في القتال !

ثم سأل الشيخ : ما هذا العرام بالحرب في كل شعب من شعوبكم حتى استنفدت رجالكم وجارت على نساءكم ، واستنفدت سلاحكم وجارت على أدوات السلم في أيديكم ؟ ما هذه الحاجة الملحة إلى إزهاق الأرواح وتمزيق الأبدان ؟ أم فرط كراهة منكم للحياة أم هي فرط خوف من المنية ؟ أم أنتم مدفوعون إلى حيث لا تعلمون وأنتم تحسبون أنكم تعلمون ؟

وكأنما خشي التلميذ أن يحاسبه الحكيم على سيئات عصره . وأن يسأله في هذا سؤال المتهم عن ورره ، فأجابه وهو لا يفقه ما يعنيه :
عن هذا أسألك أيها الحكيم العليم ! فهي معضلة من معضلات الزمن الأخير نسأل عنها وليس لها من مجيب ! ..

فشك الشيخ غير قليل . وغاب عن صاحبه في تأمل طويل ، وكأنما أفاق من غيبوبة علوية حين أقبل يقول :

« إنما الحرب يا بني حيلة من ليست له حيلة ، يقدم عليها من يأمن شرها أو من يخاف جميع الشرور فلا يبقى له ما يأمن .. وإنما يستमित في الخصومة من يخاصم الأقدار وإن حسب أنه غاصم لإخوانه من بقى الإنسان : إنما

يستमित في خصومته من يطلب الدوام لشيء لا يمكن دوامه أو يطلب التبدل لشيء لا يمكن تبدله ، فهم يحاربون القدر ولا يحاربون أبناء آدم ومن حارب القدر يا بني لم يحاربه بنصف عزمه ولا بنصف سلاحه ولا بنصف رأيه : من حارب القدر فأيسر جهده أن يستجمع . وأن يستमित . وأن يخسر في الجانبين وينهزم في الصفين .

وهؤلاء أبناء أندلس يريد فريق أن يعيد أمس ، ويريد فريق أن يستعجل الغيب ، وليس هذا ولا ذاك في يد إنسان ، ولو كان في يد إنسان لكان ، ولم يستعز بينهم كل هذا الشئان (١) .

قال التلميذ : ألا دواء لهذا الشئان بين الفريقين ؟ قال الحكيم : حتى يفقد كلاهما كل قوته ، أو يفقد كلاهما نصف اعتقاده . فإذا انقصم السيف الأخير في أيدي هؤلاء وهؤلاء فهناك رجاء في سلام ! .. وإذا شك كلاهما في حقه واعتقد أن نصف الحق معه ونصف الحق مع خصمه فهناك رجاء في سلام ... أما وهناك بقية من قوة في الصفين ، وإيمان بالحق الكامل في الجانبين فلا سلام ولا رجاء فيه !

...

قال التلميذ وكأنه يمزح :
أو لا يسفر الشيخ بينهما ليظهر لكليهما نصف باطله ونصف الحق عند خصومه ؟ ..

فطن أبو العلاء لموضع المزاح من كلامه وتغم بين شفتيه :
بعثت شفيعاً إلى صالح وذلك من القوم رأى فسد
فسمع مني سجع الحما م وأسمع منه زئير الأسد
ولأفسد من ذاك أن أذهب شفيعاً في حرب الأقدار ، وسفبراً بين الأعصار (٢) والنار ..

(١) الشئان : الكره والبغض .

(٢) الأعصار : الريح تهب وتثير الغبار وماء البحر .

المرأة

سقط الشيخ في ذلك اليوم للبحث والمساحة ، فأقبل على تلميذه يسأله : ألا تلاحظ يا بني من تلك الفلسفات التي ذكرت لي أنهم يدورون بها حول المرأة في العرب الحديث . وفي زمانكم هذا الأخير ؟ فقد أنبأتني بالقليل منها يوم حدثتك برأي في جنديات الأندلس المقاتلات . وقد لاح لي مما أنبأت أن فلسفات القوم في هذا المجال تشمل على كثير . وأن آراءهم اليوم توشت أن تنصرف كلها إلى فلسفة الزواج وفلسفة العشق وفلسفة الإباحة وما شاكل ذلك من فلسفات . وإلى - كما تعلم - امرؤ قد غيب هذا الأمر وأفرطت في العناية به حتى لزمت الرهبانية . فإذا يقول القوم فيه ؟ وعلام يقع الخلاف ؟ وكيف يختلفون ؟

قال التلميذ : إني لأستحي أن أقوم من الشيخ مقام الأستاذ ولو في هداية الطريق . فكيف بالمداية في الحكمة وأقاويل الحكماء !

قال أبو العلاء : اعتبرها يا بني هداية طريق في بلد أنت به أعلم وأنا فيه غريب . فالغربة قد تكون في الزمان كما قد تكون في المكان ، وأنت صاحب الدار يا بني في زمانك ، فقل ولا عليك من مقام الأستاذ ومقام تلميذ .. ألسنت أنا القائل :

رب شيخ ظل يهديه إلى سبل الحق فلام ما احتلم

فقل يا بني ولا تتحرج . وإن أبيت إلا مقام التلميذ فاقنع منها اليوم بالطاعة فيما أدعوك إليه ..

فلم يسمع التلميذ إلا أن يجيب سؤال الشيخ . وأنشأ يقول وهو متلهم في المقال :

هذه الفلسفات بامولاي كثيرة كمالاح لك من بواذر الإشارة المعارضة . فن أصحابها من يعمل حب المرأة أخب كله ومرجع الأهواء بخلافها .

ويزعم أنه حب بضميره الطفل في طبعه وهو يرضع من ثدي أمه أو جبو إلى لبعته أو يتوالب مع لذاته . وإنه ما من خربة يبطها الإنسان إلا ومناطها هوى من هذه الأهواء مكبوت . ويزعم من هذه النزعات يختلف فيها التفسير والتأويل . وقد تفصح عنها الأحلام التي يتأجج بها الإنسان سريره في المنام . وإن كانت المناواة هنالك الرموز والأشكال دون المعاني والأفكار ..

ومن أصحاب هذه الفلسفات من نشأ على المذهب الأول ثم عدله ورفعه بإضافة حب القوة إلى حب المرأة . أو بإضافة الهدى والجاه إلى الشهوة والغرام

ومنهم من يقول إن الأخلاق ينبغي أن تختلف بين أفراد الرجال والنساء كما تختلف أنواع الغذاء . فالتناس في حاجة إلى غذاء متشابه العناصر متقارب التركيب .. وليس من طعام مع هذا هو صالح لجميع الأبدان المطلوب في جميع الأحوال . فكذلك الأخلاق في جملتها من عمل الخير والدعوة إلى الصلاح قريبة العناصر متشابهة الأوصاف . ولكنها قد تختلف مع اختلاف المزاج كما يختلف الطعام على حسب البنية . حتى يكون دواء هذا ما هو سم قاتل لذلك . فليس لجميع الناس قانون واحد ولا خلق واحد ولا طعام واحد . بل ينبغي أن نعزم على أناس ما يباح لآخرين ..

ومن أصحاب هذه الفلسفات من يدعو إلى الإباحة لأنها حالة الطبيعة . ومنهم من ينكر عليه هذا الزعم فيقول إن الإباحة هي أبعد الأحوال عن طبيعة الأحياء : ألا ترون إلى العجذوات تمنع وتقاتل ثم تعتصم بالعفة والزهادة طوال العام ؟ ألا ترون إلى قبائل المظرة الأول كيف تحوط الصلاقة بين الرجل والمرأة بالمراسم والشعائر وكيف تحفظها بانسجام والشعوذات ؟ فالطبيعة أحبب أن تكون إلى جنب الاعتدال والاعتصام (راجع إلى العلاء)

دون الإباحة والانطلاق ، ولا سيما في غرائز الحب ودوافع الشهوات .
والخضارة قد علمنا أنه حيث تكون القيود في الحب تكون نهضة
الشعوب ، وحيث تكون الإباحة في الحب يكون الركود ثم الدثور ..

...

ومن أصحاب هذه الفلسفات من يدعو إلى الإباحة لأنها الحل الصالح
عنده لمشكلات الأمم في العهد الحديث . فالتناس يتقاتلون لأنهم يتنافسون
على المال ، والتنافس يتنافسون على المال لأنهم يشتركون به الشهوات
والمظاهر التي هي كالأشراك لاقتناص النساء . فإذا بطلت قيود الجنسين
بطل في زعمهم كل ذلك وخفت حدة الزحام والعسداء وقلت بواعث
الفتن والإغراء ..

...

ومنهم - وقد كان رئيساً لحكومة كبيرة في دولة عظيمة - من يوصي
الرجل أن يجرب كثيراً من النساء ويوصي المرأة أن تجرب كثيراً من الرجال
قبل الإبقاء إلى حرم البيت وحسن الزواج . فان الرجل والمرأة إذا قضيا
الشطر الأول من الحياة في التطواف والتجوال سكنا إلى الزواج وهما
جانحان إلى استقرار يعين على الوفاء ، وقناعة تعين على العصمة ،
وأصبحا زوجين وشديدين وأبوين صالحين مدى الحياة ..

قال المري : حبك ! حبك !

قال التلميذ : نعم حبي حبي . فقد تعبت من « دور » الأستاذ
وشافني أن أصغي إليك لإصغاء التلميذ .. فخذ دورك الساعة يا مولاي
وقل لنا ماذا ترى في هذه الآراء ، وماذا تقول في هذه الأقاويل .

ورجم الشيخ قليلاً ثم أشد من كلامه القديم :

لو أن كل نفوس الناس رالية كراى نفسى تنهات عن خزاياها
وعصاوا هذه الدنيا فما ولدوا ولا اقتنوا واستراحوا من رزاياها
ثم راح يقول :

إن ما سمعته يابنى بعضه شديد ، وبعضه حق ، وبعضه هراء ..

حق إن المرأة هوى النفوس وفتنة المطامع

والمرء ليس بزاهد في عادة لكنه يتربص بالإمكان

وأنها فتنة من هجر الدنيا كما تفتن من غاص في شمارها وتقلب في
أوزارها

راحت إلى القصر بتفريبها وبينما أولى بقرابها

وزارت الدبر وأثوابها ضامنة فتنة رهبانها

ولها مفاصل الحياة لا يعافها إلا من عافته الحياة :

ورذا القس كره الغواني وائق مرضا يعود وصره ما يطعم

فقد انطوت عنه الحياة ، وكاذب من قال عنه بيت وهو منم

يقال إن سوف يأتي بعدنا هجر برضى ، فتدب أسد الغابة الحطيم

وأنها خفية المسارب في دخائل الشوم -

وإنما الخود في مداربها كربة الدم في تسربها

وأنه لا يؤمن منها على صغير ولا يؤمن عليها من صغير :

إذا بلغ الوليد لديك عشرة فلا يدخل على الحرم الوليد

كل هذا حق وكل هذا شديد في مذهب صاحبكم الحديث وفي مذهب

الحكمة القديم . إلا أن المرأة ليست كل ما يشر النفس ويوسوس في

الفرائد وينبث مع الغواية ، وليست كل مارامه الرجل .

وإنما رام نسوانا تزوجها بما اقترأه وأدوالا تمولها

أو قل مرة أخرى :

وإنما رام عزاء في معيشته أو حاف ضربة ما ضى الخد فلام

أو شاء تزويج مثل الطي مة لامة للفاخرين بأسوار وأعلام

ذلك قوام الرأيين ووفاق الخلافين . أما الرأي في الزواج :

فلا يتزوج أخو الأرملة من إلا مجربة كهسلة

عل أنى أقول كما كنت أقول :

إن الأوانس أن تزور قبورها خير لها من أن يقال مر الس

وأقول كما كنت أقول :

تزوج بعد واحدة ثلاثا وقال لعمره يكفيك ربي
ليرضيها إذا قتعت بقوت وبرجمها إذا مالت لشي
ومن جمع التين فما توشى سبيل الحق في خمس ورسم

...

وأقول كما كنت أقول :

خير النساء القواني لا يلدن لكم فان ولدن فخير التسل ما نعا

وأقول كما كنت أقول :

وأصبحت في الدنيا غيبنا مرزما ما عفت نفسى من أذاة ومن غن

ثم أقول كما كنت أقول :

شر النساء مشاعرات غنون سدى كالأرض يحملن أولادا مشاعنا

ولا أكنسك مع هذا أنى :

تنازعنى إلى الشهوات نفسى فلا أنا متجع أبدا ، ولا هى

أسرع التلميذ يمتحن الأستاذ ، وبهمس في أذنه قائلا : ولهم المازعة ونحن في بلاد الغرب والشيخ قد أفرط في الصيام .

لفقه الشيخ وهو يصيح به : إياك حتى أبها الخبيث ... قد خرجنا من هذه الهنة وصارعنا فيها أستاذك القديم الميس ... والله يعلم أكنسا فيها صارعين أو صروعين ! ذلك مر مكتوم وحديث مخنوم ... !

الحكيما

كان آخر الخطباء في الجمع العظيم يقول :

إنها مصادفة عجيبة ولا ريب . فهل أقول إنها مصادفة سعيدة ؟ أختنى أن أغضب الحكيمين المختل بها إذا أنا قلت ذلك . فليس المعرى حكيم المشرق ولا شموينور حكيم المغرب ممن يدينون بالمصادفة . وليس اجتماعهما اليوم في عالم الذكرى من دواعي التفاؤل والاستبشار .. فالعالم مقبل على خطوب وكروب وأحوال وحروب . ولم يكن مذهب التشاؤم قط أدنى إلى الصدق والإقناع لما كان في هذا العصر المرموب الجوانب الملمور العواقب ، فإذا سعد الحكيمان بتحقيق ما رأياه وإثبات ما قرراه وإنجاز الوعيد وتقريب البعيد . فهو اجتماع سعيد !

لقد - وهو الثاني والعشرون من شهر فبراير - هو تمام مائة وخمسين عاما مضت على مولد الإمام الأكبر في مذهب التشاؤم بين الغربيين ، وهو آرثر شوينور . فما أعجب المصادفة التي جمعت بينه وبين الإمام الأكبر في هذا المذهب ، عند الناطقين بالضاد ، على ملئ ألف عام من مولده الحيد إن لم ياذن لنا أن نقول : السعيد !

أقول إن روح العسال في شذائده وبأسائه قد استحضرت ووجها فحضرا ، وقرب بين أقيما فاقربا .. أنقول إنها مؤاسة من عالم الخلود لعالم الشفاء والبأساء ؟ أنقول إنها نذيران أو بشيران ؟

على إننا نكرم زماننا هذا ونكبره ونرفع من قدره إذا نحن وصفناه بزمان التشاؤم وإن حقق لنا مخاوف المتشائمين .

فالتشاؤم - كالتفاؤل - إنما يكون مع الحب والاهتمام ، أو مع الظن الحسن والأمل المشوب ، نجي . خيبة الأمل حين يكون الأمل معقولا أو شيئا معقول . أما إذا غلب البأس من الداية فلا تشاؤم ولا أخلاق ظنون ..

« الذى يهجو المرأة يحبها كالذى يثنى عليها . والذى يملأه الغبط منها كالذى يملأه الشوق إليها : كلاهما يعتد بها ويشغل بأمرها ويحسب الحساب لإقبالها وإعراضها . أما الذى يلهو بها فلا شوق ولا غضب ! ولا فرح بلفاقها ولا حزن لفياها . فليس ذلك من العشاق المدلين ولكنه من طلاب الفراغ العابثين .. »

• •

كدلت الحياة في زماننا قلما تتسع فيها النفس لتفاؤل أو تشاؤم . وقلما ترى فيها إلا مزجيا لفراغ أو لاهيا بحاضر مبتور . لا يرجع إلى ماضيه ولا يترقب عقابه ..

« كانت الحياة حليلة نحاسها على الأمانة والحياة . وكانت في بعض أجيالها عشيقة نحاسها على العطف والمودة . فأصبحت عندنا بنتا من بنات الهوى لا نحاسها على شيء ولا تغار عليها من أحد . ولا ننحى عليها بلوم ولا نخصها بثناء .. »

« فتنح كما قلنا : نكرم زماننا هذا ونكبره ونرفع من قدره إذا نحن وصفناه بزهة التشاؤم . ليتنا كنا متشائمين . وليتنا نخضل بالحياة ... ما انحالنا نخطيء إذ نقول إن تشاؤم أبى العلاء وتشاؤم زميله في الغرب سعادة بالقياس إلى ما نحن فيه .. ! »

كان هذا القائل آخر الخطباء في الجمع العظيم الذى التقى من بلاد المشرق والمغرب لتحية الحكيمين في إحدى العواصم . فكان في هذه التحية تركية للذهب المثنى بصاحبيه . كما كان فيها منافسة له وتشكيك فيه . لأنها جاءت في إبانها دليلا جديداً على اتساع أفق الحياة واستغراقها للجميع ما يقال فيها من تشاؤم وتفاؤل . كما تهضم البنية اقوية ما ينفع وما يضير ..

وقد خرج حكيم المعرفة وهو يعجب ويسأل تلميذه من فرط العجب : « أحق أن التشابه بينى وبين الرجل على هذا المدى من القرب

والتجاور . مع ما بيننا من مسافة الزمان ومسافة العنصر ومسافة المسكر واللسان ؟ .. »

قال التلميذ : بل هو أقرب من ذلك بامولاي .. فلا عجب أن يتفق الرجلان في النظرة إلى الدنيا على تباعد الجيرة وتفاوت السيرة . ولكن العجب العاجب أن يتفقا على التفعييلات ويتشابهوا في الدقائق والعرضيات . وفيما ليس هو من جوهر المذهب ولا من الضروريات التى يقضى بها التوافق في الأصول . والذائل في العفول .

قال أبو العلاء مستفهما : ومثال ذلك ؟

قال التلميذ : مثال ذلك أن الرجل يقول : إن المرء يعيش إلى السادسة والثلاثين من عمره كما يعيش التاجر الذى يتفق من ربحه ونوافله . ثم ينحدر وينقص ولا يزال في نقصه وهبوطه حتى يتفق من رأس ماله إلى يوم إفلاسه ووفاته .. وأنت بامولاي تقول :

إذا ما تقضى الأربعون فلا ترد سوى امرأة في الأربعين ما قسم
فان الذى وفى الثلاثين وارتقى عليهم عشرا للفناء به وسم
زمان القواني عصر جسمك زائد ومن عناء بعد أن يقف الجسم

• • •

والرجل يقول بغلبة الإرادة على الفكرة . وضباغ العفول مع الشهوات وأن العقل يكف عن العمل ، وأن العمل لمن لا يعقلون . وأنت بامولاي تقول :

وتفكر الإنسان يثنى غربه (١) ويرد جماعه إلى الاقتصار
وتقول :

إذا ما أشار العقل بالرشد جرهم إلى الذى طبع أخذه أخذ صاحب

(١) غربه : حذته .

وتقول :

وقد غلب الأحياء في كل وجبة هوامهم . وإن كانوا غطاة (١) غلاً (٢)

وتقول :

والعقل زين ولكن فوقه فاسر فانه في ابتغاء الرزق تغدير
والرجل يرى أن النوم سلفة مستهارة من الموت . وهذا رأيك في أبيات
كثيرة منها :

نومي موت قريب النسيو ر . وموتي نوم طويل الكرى
ومها .

وموت المرء نوم طاق جداً عليه . وكل عيشته مهاد
ومها :

وفضيلة النوم الخروج بأهله عن عالم هو بالأذى مجبول

والرجل يعطف على الحيوان . ويؤثر صحة الكلب على صحة الإنسان .
وأنت مع تحريكك أكل الأحياء تقول في الكلب خاصة :

سبيت بالكلب فأسكرته والكلب خير منك إذ يبيع

والرجل يقول إن الإرادة تورث من الآباء . وإن الذكاء يورث من
الأمهات . وقد أوشكت يا مولاي أن تقول ذلك حين قلت :

كأن حواء التي زوجها آدم لم تلقح بشخص أريب
قد كثرت في الأرض جهالنا والعقل الحازم فينا غريب

والرجل يرفع من أقدار نسائه المندد . وأنت كذلك ترفع من أقدارهم .
ويذكر مذاهب الجحوس في الحسب والشر . وأنت تذكرها كما جاء في
قولك :

(١) غشافة : جمع لشريف وهو السبه الشريف .

(٢) غلبا : جمع أغلب وهو العليظ الرقة . والأسه .

فكر . يزدان . على غيرة . أصبح من تفكيره . هو من .

والرجل يقول في الزمان : . نحن نسلط يوماً كل مغرب نحمس .
ويقول فيه : . إن وجودنا منقر على الحاضر الذي ما يتي أبداً مرة . ربما
صائراً فلا بد له . أي لوجودنا أن يلبس بالحركة الدائمة الدائمة
بلا أمل في الوصول إلى الراحة التي يبتدعها . مثلاً في ذلك مثل 'أ' حذر
من جبل عال فهو يسقط إذا حاول الوقوف .

وذلك شبه يامولاي بقولك :

نفس بعد مثله يتقصى صدر الدهور والأحيان

وقولك :

أما المكان فتأبث لا يملوى لكن زمانك داهب لا يثبت

وغر ذلك التشابه كثير . يدل عليه تناقض التعبير بينكما كما يدل عليه
التقارب في التفكير ..

والرجل يسأل : . ما هو التواضع إلا أن يكون دلة مزيفة يلتصق بها
المرء غفراً لفضائله ومزاياه في عالم مكشوط بالحسد والضغينة ؟ .

ومولاي قد تلمع بالتواضع كثيراً لانقضاء الثمر والملاحاة . وتلمع التواضع
كثيراً في فساد الفخر والمهااة . وشعلته هذه المسألة من حيث شعلت
صاحبه في حاني الإقرار والإنكار .

قال أبو العلاء : إن هذا له حبيب . وإن الرجل إلى جلد قريب . وما
أحسبها إلا قرابة في الطباع لا قرابة في الرأي والأطلاع . فان تشابه الطباع
هو الذي يوحى القول لواحد إلى أفواه الكثيرين . أما المتشابهون في
الحقول فقاموا يتفقون . وقد يتباينون . لأنهم متشابهون !! ..

حكم وحكمة

كان أبو العلاء قد أقام في بلاد الانجليز بضعة أيام . شهد في خلالها مجامع العلم والأدب ومعاهد الفن والرواية . وسمع الكثير من أنباء السياسة العالمية . وأنبأه الأزمة التي أخرجت وزير الشؤون الخارجية . وأعجبه نمط الحكم وانتظام الأمور بين الحكام والرعايا . فجلس يحاور تلميذه وتلميذه يحاوره ، ويأبى التلميذ إلا أن البرلمان هو أساس هذا النظام وسبب هذا الاعتدال في تدبير الأحكام ، ويأبى الحكيم إلا أن الأمة التي تنجب البرلمان تعرف الحكم الصالح بغير برلمان . فلو لم يكن فيها نواب وناخبون ، لكان فيها الحكم كما ينبغي أن يكون . لأنها هي المرجع وهي الأساس . وكل ما عدا ذلك فهو صور وأشكال . يأخذها أناس ويبذلها أناس ..

قال التلميذ : بل الرأي هنا للكثرة من سواد الأمة . وما على الحكام إلا أن يطيعوا ما يأمر به هؤلاء .

قال أبو العلاء : وهل للكثرة من السواد رأى ؟ إن الله يقول : « ولكن أكثرهم لا يعقلون » ويقول : « وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله » ..

قال التلميذ : ويقول : « وأمرهم شورى بينهم » .

قال أبو العلاء : ونسبت أنه جل جلاله يقول : « فاسألوا أهل الذكر » ويقول : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ؟ .

قال التلميذ : فإذا يسمى الشيخ هذه الحكومة التي يسمونها هنا بالحكومة النيابية ؟ .

قال الحكيم : اسمها الحكومة النيابية واختلف ما شئت في معنى النيابة وفيمن ينوب وفيمن ينبغي . فالرأي لأهل الرأي والحكم لأولى الحكم .

والطاعة لمن يستطيعونها . ولا مشقة في الطاعة على سواد الناس إذا صلحت الأحوال وتقايلت الأهواء . فلا غلبة من هنا ولا هزيمة من هناك ، ولا يأس من تبدل الأمور كلما اشتدت سطوة فريق واشتدت معها شكايته فريق ..

قال التلميذ : أكاد يا مولاي أن أنابعك في قولك وإن كنت تنظر إلى زمان غير زمانك . فالحق أننا هنا بين أمة توازنت جوانبها فقل فيها الجور وكثر فيها الاعتدال : إن طغى النبلاء صمد لهم كبار التجار . وإن تجبر العلية أو تمرد السفلة صمد لهم أوساط الناس . وإن تحكم رجال الدين قابلهم رجل العلم . وإن صال الجند والقادة في البر فهناك الجند والقادة في البحار : تقابل وتوازن لا يطفئ فيه جانب على جانب . ولا فضل فيه لتدبير فئة على فئة . وإنما هو من صنع الجغرافية ومن صنع التاريخ ومن صنع الفئات كافة . وما داموا على هذا فهم في صلاح دائم . وأخشى أنهم لا يدومون ..

وإن التلميذ لبوشك أن يمحى في مقاله إذا بحاجة الباب عمل إليه رسالة من وزير الشؤون الخارجية المستقيل . وإذا بالوزير يطلب الإذن في مقابلة الحكيم . وإذا بالحكيم يسأل التلميذ ويعجب : ما خطب الرجل وهو في أزمت عاجز لا يفرغ فيها الساسة للأدب والأدباء ولا للشعر والشعراء ؟ والتلميذ يشرح له بعض ما يعلم من شأن ذلك الوزير . ومن شؤون سائر الوزراء في تلك البلاد .

قال التلميذ فيها قال : أنه يا مولاي يعرف اللغة الفارسية

قال أبو العلاء : ولكني لا أعرفها

قال التلميذ : أعلم ذلك . ولكنه يا مولاي قد اطاع على شعر حكيم الفرس الخيام ويعنيه أن يلتق بحكيم العرب أبا العلاء . وهو فيما يحسه بعض أدباء العرب أستاذ الشاعر الفارسي . وقاتع هذا الطريق في آداب المترقيين ..

قال أبو العلاء : أو كثير من وزراء هذا البلد من يعنى بهذه المطالب ؟
قال التلميذ : عبر قليل . ففهم من يكتب في الحكمة والعلوم . ومنهم
من يكتب في نظام الشعوب وتدبير الممالك . ومنهم من يكتب في الخطابة
والتاريخ . ومنهم من يكتب في الطير والسمك . ومنهم من يكتب في
مشاهد الطبيعة ومناظر القصور . ومنهم من يقصد أهل الفن والأدب
فينتفع له من صائب النقد ما ليس يتفق لرجال هذا المقام وقرسان ههنا
الميدان كما يقولون . أذكر مولاي تلك الروايات التي شهدناها في معاهد
التأهيل فأعجب الأستاذ ببعضها وسأل عن كانتها ؟

قال المعري : تعنى الرجل المسمى « برناردشو » ؟

قال التلميذ : إياه أعنى ..

...

فعاد المعري يسأل : وما شأنه في هذا السياق ؟ أهو وزير من أولئك
الوزراء ؟ ..

فأجاب التلميذ : كلا بل هو أديب كتب عنه عشرات من الأدباء . فلا
أذكر أن واحداً منهم أصاب في نقده ما أصاب الوزير الذي قال في
شخصه رواياته : « أنها تظهر في الحياة لا لما تعمل أو تكون . ومع هذا
هي صالحة للحياة » .

قال أبو العلاء : صدقت يا بني فما أعرف لذلك الكاتب المقول صفة
أوجز ولا أصدق من هذه الصفة ... فمن يكون الوزير القاتل هذا ؟ أهو
زائرنا اليوم ؟ ..

قال التلميذ : ذاك يدعى شرشل وزائرنا يدعى إيدن . وكلاهما في ميدان
الأدب وما صعب الحكم سواء . وإن كان هذا أدنى إلى المسألة وذلك أدنى
إلى الصرامة والنضال ..

فأطرق المعري هنيهة ثم أدار وجهه إلى تلميذه وقد اطمأن إلى حديثه .
وقال له : « ما أحسب اشتغالهم بهذه المطالب إلا من الخبر . فان التصريح

لحكم - بل لعمل واحد كانا ما كان - سبيل إلى العت ومضى النظر
وهذا الساحة . ومن تعددت مطالبه كان خليفاً أن ينسج أفقه للخصومة
والخلاف . وأن يعود وهو أدنى إلى المودة والإنصاف .

ثم هتف بالتلميذ : لقد أطلنا على الرجل لحظات الانتظار . بأسرع !
أسرع إليه بالدعوة . وبالأعتذار .

...

ويطول سرد الحديث الذي جرى بين الحكيم والوزير ، فحسبنا منه
ما استطرد إلى السياسة وتدبير الشعوب .. فقد أغاض الرجلان في مقاصد
قول حتى استغفنا منها كل ما يخوضان فيه ويشاركان في صاحبه . وأنهما
لبئس بالافتراق إذ يقحم التلميذ سؤالاً كان من حقه أن يسأل لولا أن
شمل عنه المتحدثان بأفانين الأدب والثقافة ، ولعل التلميذ قد عز عليه أن
يرى في سياسة العصر رأياً لا يقره عليه شيخه وأستاذه فاندفع يقول :

ألا يسأل مولاي زائرنا الكريم فيما طرقتناه من حديث الحكومة
والبرلمان ؟ فما يبلنا مثل خير !

ووافق السؤال هوى من نفس الحكيم فأوجز الأمر للوزير وأنصت
بترقب منه الجواب ..

قال الوزير : سر التوفيق في حكومة هذه الأمة أن يتم فيها الأمر الجليل
كما يتم الأمر الصغير ، وليس فيها من يعتقد أنه يريد كل الإرادة أو يأباه
كل الإباء ، وأنهم قد أحسنوا الخصومة في الجدل .. فالتغلب منهم والمعلوب
في رياضة لا توغر الصدور ولا تحفظ القلوب .

قال المعري : وماذا ؟ .

قال التلميذ : إنه كان من أهل بلد صغير فصلوه من موطنه الكبير .
فما كانت الحرب التي يسمونها بالحرب العظمى طمع في رجعة ذلك البلد
وسعى إلى الوصل بين منشأ أهله ومستقر قومه ، فحالت الحوادث دون
م طمع فيه وسعى إليه . فحمل السلاح وغزا ذلك البلد وأقام نفسه حاكماً
عليه وأبى أن يرحله إلا وهو قتيل . بل جعل يصيح على مسمع العالم كله :
أنه لن يرحله وهو قتيل ، لأنه أقسم بموتن فيه وليدفن في ترابه ، بل أقسم
ليكونن هناك نصيراً لكل من أضاع وطناً أو غصب على وطن ، ونادى
بذعوته فإذا هي كما قال : « أعظم الدعوات وأجملها وأشدّها نفمة على
خسة العالم الشائخ وهره وتخريفه في هذه الأيام . لأنها تمتد من أيرلندة
إلى مصر . ومن مصر إلى روسيا وأمريكا . ومن رومانيا إلى أندلس :
تجمع الشعوب البيضاء والشعوب ذات الألوان . وتصلح بين وحي
الأنجيل ووحى القرآن . وتتمنى بالوثاق بين أتباع عيسى وأتباع محمد ،
وتخرج في إرادة واحدة كل ما وسعته الأمم في نخاعها وفي عروقها من ملح
وحديد لإمداد النفوس بغذاء العمل والحركة . وستنتشر لا محالة !
وسيتضوى الثائرون من جميع الأمم بين جميع أبناء آدم إلى أعلامنا
وسيتصو العزل المظلومون سلاحتنا . وسندفع العنف بالعتف والشدة
بالشدة . ونشأ غارة جديدة كفارة الصليبيين لثبيرة المساكين وإغاثة الأمم
المنقرة المزوفة . ونرسلها شهواء على المرابين والمبزين الذين غنموا
بالجمس أسلاب الحروب ويعتدون اليوم أسلاب السلام » .

قال المعري : أضغات أحلام . وشطحات أوهام ... ثم ماذا كان من
شأنه في ذلك البائد . وماذا كان من شأنه مع المظالمين والمستضعفين ؟ .

فابتسم التلميذ وقال : هو ما تقول أيها الحكيم .. فما هي إلا أضغات
أحلام وشطحات أوهام ، وما هو إلا أن تبدل الوزراء في حكومة بلاده
حتى خرج حياً من البلد الذي أقسم بموتن فيه وليدفن في ترابه ، وما كان

قد دخله من قبل إلا وهو على تواطؤ مع قادة الجيش ورجال الدولة . فلم
يمتنوه ، ولم يقفوا في طريقه ..

فابتسم الحكيم ابتسامته المرة وعاد يسأل وكأنه يعلم جواب ما سأل
عنه قبل الإقضاء به إليه :

والمساكين المستضعفين ؟ ..

ففقّه التلميذ ناسياً أدبه ووقار شيخه . وقال : أما المساكين
المستضعفون فقد جردت عليهم حكومتهم جيشاً يزيدهم مسكنة وضعفاً .

• • •

فتعجل الشيخ سائلاً : فإذا صنع خليفة دانتى وخليفتى برحمتك الله ؟
هل أعطاهم من سلاحه ما يفتعنونه ؟ .

قال التلميذ : بل أرسل عليهم شواظاً (١) من شعره يخض به الجيش .
الزاحف على حسن البلاء وتشديد النكير .

فوجع المعري مهموماً ولم يزد على أن قال

صدق الله العظيم « يقولون مالا يفعلون » .

(١) شواظ : الشملة والتهب .

لعبة العبقرية

كان أبو العلاء في أيامه الأخيرة بين أمم الغرب كثير السأمة من لقاء الناس . كثير النفور من المجمع والمافل ، كثير الإعراض عن الجدل في المذاهب والآراء والفلسفات التي سمع من أخبارها في أيام ما لم يسمعه في أعوام كان بقاء الحياة .

« ما النحو ؟ .. ما الشعر ؟ .. ما الكلام ؟ » كما قال في بعض أبياته (١)
كانها ككل شيء في هذه الدنيا .

تعب غير نافع واجتهاد لا يؤدي إلى غناء اجتهاد

وكانت للأمر في أول عهده بالقوم جدّة وغرابة ، فكان يحتمل المجمع والمافل ما بقيت الجدة والغرابة .. ثم نصلت (٢) الطلاوة وزالت الفشاة فإذا الحديد كالقديم وإذا العجم كالعرب ، وإذا الدنيا هي الدنيا والناس هم الناس والحياة هي الحياة ! وكل يوم دعوة ، وكل يوم خروج على غير طائل . أو على ضجة ما كان أغنى عنها تينك الأذنين اللتين حجبهما الرجل عن الصوت : بعد أن حجبت الأقدار عينيه عن الضياء .

قال يوماً لصاحبه : كنت أحسب الدنيا بذية مطمورة في القدم فكلمنا غاص الإنسان فيها كان أدنى إلى حقائقها وأسرارها ، فلما بعثت في هذا العصر الحديث حسنتها منجماً مقبلاً كلما أمعن الإنسان في غده بعد يومه كان أدنى إلى تلك الحقائق والأمرار ..

فأسرع صاحبه يسأله :

فالآن ماذا تحسبها ؟

(١) من أبيات يقول فيها :

أف لسا نحن فيه من مت فكلمنا في تحصيل ودلس
ما النحو ما الشعر ما الكلام وما مرقش والمسيب بن علس ؟

(٢) نصلت : فصل الشعر : ذهب عنه الخفاب .

قال أحسبها متاهة مقلقة . فكلمنا رجعت فيها أو تقدمت فأنت في مكان واحد من المدخل أو من المخرج . وقد أغلقت فلا مدخل ولا مخرج هناك .

وكان صاحبه أو تلميذه من أبناء العصر المنشئ على تربيته وعاداته : كل دعوة تأتيه فاما لحضور وإما لاعتذار . وكانت عنده دعوة من مؤتمر الفلسفة والأديان . ينتظر أصحابها الإجابة من حكيم العرب وحكيم القرون الوسطى .. فبماذا يجيب ؟ والحكيم لا يريد الحضور ولا يريد الاعتذار ؟ ..

...

تلك فرصة سانحة يوم عرض الحكم للدنيا وشبهها نارة بالبنية المطمورة ونارة بالمنجم المحفور . ونارة بالمتاهة المقلقة .

فعاد التلميذ إلى المفاتحة في أمر الدعوة إلى مؤتمر الفلسفة والأديان . وعاد الحكيم إلى الرفض والإعراض وزاد متهمًا ساخرًا : مؤتمر يشاور فيه بعضهم بعضاً فيما يدينون به من عقيدة !! .. ليوشك القوم غدا أن يتشاوروا فيما يحبون من وجه جميل وفيما يأكلون من فاكهة لذة !! وهل يرجع المرء فيما يحبه من جمال وفيما يشعر به من لذة وفيما يعتقد من طمأنينة اليقين إلى مشاورة الآخرين ؟

فعلم التلميذ أن نوبة النفور أصلح هنا للخوض في مسائل المؤتمر من نوبة الإقبال والموافقة ، واقترح على الشيخ أن يسأله وأن يدون جوابه . وأن يستخلص من الحديث ما يلقيه على المؤتمرين . نالاً عن الشيخ . والشيخ معاني من مشقة الذهاب ومشقة السؤال والجواب .

قال التلميذ : أنت من العقليين يا مولاي أم من الفطريين ؟ ..

فسأله مولاه :

ما العقليون وما الفطريون هداك الله ؟

فلخص التلميذ مذهب العقليين ومذهب الفطريين في كلمات موجزات . وقال إن العقليين يحسبون أن الإقناع هو سبيل الإصلاح والهداية .

والفطريين يحسبون أن البداهة قبل التفكير وأن الإقناعات قلما يغالب الأهواء .. فمن أى الفريقين يا ترى يكون الشيخ الجليل ؟

قال أبو العلاء : من كلا الفريقين !

أنا من العقليين حين أقول :

كذب الظن لا إمام سوى العقل مشيراً في صبحه والمساء

وأنا من الفطريين حين أقول :

العقل يسمى لنفسى في مصالحها فما لطيف إلى الآفات جذاب

وأنا لست من هؤلاء ولا هؤلاء حين أقول :

وبصير الأقوام مثل أعمى فهلما في حذرس نتصادم !!

قال التلميذ : خرجنا من البنية المطمورة ومن المنجم المغفور ودخلنا المناهة المظلمة يا مولاي : هذا تناقض والحق لا يتناقض . فساذا أقول للمؤمنين من رأى الشيخ في حقيقة الحق بين هذه الأمور ؟

فهتف به الشيخ ضاحكاً وجد سرى عنه بعض السامة : بل التناقض للحقائق يا بني لا للأباطيل ..

...

إن الأباطيل تتغير وتبدل فيسهل التوفيق بينها بقليل من القصد هنا وقليل من الزيادة هناك ، أما الحقائق فهي التي تقف في سبيلنا وقفة الصخور . لا تحيد من يمين ولا من شمال ، وعليها نحن أن نسلك بينها ونتحول من حولها . فان أردت أن تحول بك في دروبها قليلاً فاعلم إذن أننا نتبع العقل فيما هو للعقل من رأى وتفكير وتجربة ومشاهدة ، وإننا نبتع الفطرة فيما هو للفطرة من ذوق وطمأنينة وتسليم . وإننا لا نطلب من الفطرة أن تصبح عقلاً ولا من العقل أن يصبح فطرة . وإنما نستشير كليهما حيث بشر ..

...

وبدا لأبي العلاء أن تلميذه المصنفي إليه يستريح ويستفرغ على ما سمع فأدركته عارضة من لعب العبقرية ولعب الطفولة الخالدة . وهل العبقرية الخالدة إلا حياة متجددة ؟ وهل يلعب الطفل إلا لما يدركه من جدة الحياة وإقبالها ؟ فكما يرى الطفل من ينامون إلى جانبه وهو يقظان فتأني عليه شيطنة الحياة العارمة إلا أن يوقظهم معه ويهديهم بماس من القلق الذي يشتمل عليه . كذلك العبقري لا يعطيه له أن يأرق وحده والناس هادئون .. فمن ثم إن شئت يقضات الأحلام والناس نيام . وشيطنة الخلود والقانون سادرون في موت الجمود : قل إن شئت أنها جدة تلطف جددا . وأنها حلاوة تحالط مرارتها . ولكنها - بعد كل ما يقال - لا تخلو من جانب اللعب فيها وجانب الرياضة . ولن يستحق الجلد ما ليس فيه لعب ولا رياضة ..

...

بدا ذلك لأبي العلاء فأوماً إلى تلميذه يسأله وقد كفّ هو عن سؤاله :

أراك صدقت وأمنت . فالك لا تسأل : ومن الذي يستشير العقل ؟ ومن الذي يستشير الفطرة ؟ أرى الإنسان شراً خارج العقل وخارج الفطرة فهو الذي يكون منه السؤال ثم يكون الجواب أما من العقل المسئول أو من الفطرة المسئولة ؟ وما رأى إذا كان السائل هو الفطرة والمحجب هو العقل ؟

وما رأى إذا وقع الخلاف على السؤال وعلى الجواب ؟ !

وفوجئ التلميذ .. ولكنها مفاجأة وقعت منه موقع السرور والتأهب . لأنه انتظر بعدها مزيداً من الاستفسار ومزيداً من التفسير . فقال إذن أنت يا مولاي من الجبريين ؟ ! ولا أدري كيف فأتى الساعة أن أذكر ذلك وأنت القائل :

والعقل زين ولكن فوقه قدر فما له في ابتغساء الرزق تقدير

...

قال أبو العلاء ولا تزال فيه تلك العارضة من لعب العبقريّة : ولا تدري أيضاً كيف فانتك الساعة أنى لست من الجبرين ولا من القسدرين لأننى أنا القائل :

لا تعش مجبراً ولا قسدرى واجتهد فى توسط بيننا
قال التلميذ وكأنما شئت تلك العارضة التى استولت على أستاذك فى تلك الساعة :

وهل هذه إلا الجبرية بعينها ؟ لا تريد أن تقول إن الإنسان مجبر ولا تريد أن تقول إنه غير . ولا تفصل فى المشكلة بل تدع الفصل فيها لعالم الغيب أو عالم الشهادة .. ماذا يكون الجبريون إن لم يكونوا هكذا غير مختارين فيها يفكرون وفيها يعتقدون ؟

فأصغى الممرى وأعجبه ما سمع من تلميذه فأوماً موافقاً : نعم هى الجبرية فى أرجوحة ذاهبة آية .. وهى خير من الجبرية فى قيد مقيد ..
قال التلميذ :

لقد صدم الثيقن فى زمان حصلنا من حجاب على التلقى (١)

فهنف به الممرى : ونحك لك لتعقبى بكلامى القديم تعقب المذهب بإقراره .. فهلا أهلك حفظك عن مطاردتى بالسؤال والاستقصاء ؟

فلاحظه التلميذ قائلاً : المدى يا مولائى فى هذه المسائل ليسبح . والتعب لا يضير . وخطة واحدة إلى الإمام أو خطوة واحدة إلى الوداء لن تضيق الطاق . ولن تقرب الحاق .

قال الشيخ مترقباً : ثم ماذا ؟

قال التلميذ مجازياً : ثم علام الجزاء إذا كما فيها نحن أو نسيء مجبرين مسيرين ؟ ..

(١) التلقى : العلم والتعقّب .

قال الشيخ : إذا كانت النفس تعمل الخير مكرهة فما حقها فى الجزاء ؟ وإذا كانت النفس تعمل الخير فتارة لأنها تزوره وترضاه وتجد فيه الفعلة وفى غيره الدم والحسرة فما حقها أيضاً فى الجزاء ؟ فأحرر بنسا ألا تشغل بالناتجوية أو عقوبة .

ولفعل النفس الجميل لأنه خير وأحسن للأجل ثوابها

...

إن الطفل يا بنى بلجر بالدرهم ليأكل الطعام وفيه مصلحته ونحوه . فإذا كثر الطفل بذل هو الدرهم وصبر على بذله وتحصيله ليأخذ به طعامه ويشبع به نهمته وأوامه (١) .. وكللك تصغر النفس فتزجر على خيرها الذى تجهله . وتكبر النفس فتبذل هى الأجر على ما تعمل من خير . وذلك هو الجميل وذلك هو الثواب .

أدى برب واحد ومجنب قبيح المسامى حين يظلم دائن
ثم أشد :

وليس اعتقادى حلوه التنجوس م ولا مذهبي قدم العالم

...

ثم حاودت الشيخ تلك العارضة من لعب العبقريّة الخالدة فصاح بالنقى . أسرع .. أسرع يا بنى إلى مؤتمر الفلاسفة والدين . أسرع إليهم فقد طال بهم الانتظار . فى طلب هذا الحوار . الذى لا يستقر عليه قرار . ولا يزيد به عدد الأبرار . ولا ينقص به عدد الفجار .

ثم ثم بين شئ :

ما لنحو ؟ ما الشعر ؟ ما الكلام ؟

كلام فى كلام فى كلام ؟

(١) أوامه : الأوام . لغة المنطق

الاختراع

السفينة في طريقها إلى المشرق والمعري وصاحبه على مقدمها يستقبلان الهواء ، والمذباغ بغنى الأنشودة المشهورة على لسان امرأة لاهية تقول بالفرنسية :

« عندما تضحني بين ذراعيك ، أنا أعلم الكلمة التي ستقولها .. ستقول لي أحبك ! وهي كلمة كاذبة ولا شك .. ولكني مع هذا أحب أن أسمع صوتك ! » ..

والفيلسوف يسأل : ماذا تقول هذه المرأة ؟ والتلميذ يترجم الأنشودة وينتخاها في سؤال الشيخ عن رأيه في هذه المناجاة المصرية . على لسان امرأة تخاطب رجلاً ، أو على لسان النساء يخاطبن الرجال .

والشيخ يتأمل باسم ويجيب تلميذه راضياً رضى القانطين المستسلمين : هو الغرب كله يا بني ما نل في هذه الأنشودة اللاهية : هو الغرب الذي يأخذ من الحياة ما تمطيه ، وبطلب السرور . ثم لا يسوم دنياه طلب الوفاء والكمال .. هو الغرب الذي يأخذ كل شيء بقيمته وكل شيء على حقيقته ، ثم يعقله ويحببه إلى نفسه ليستسيغه ويستمرى مذاقه . هو الغرب ذو النفس الناطقة التي لا تقول كلمة في جدها ولا لها ولا تجمع فيها خلاصة ما عندها من حضارة وأخلاق وفلسفة وشهرة ..

قال التلميذ :

أولست كل النفوس ناطقة ؟ ألا تفصح كل نفس عن دجيلها في غنائها ومناجاتها ؟ ..

قال الشيخ : بلى . ولكن شتان تعبير اللسان الذي يقول فيجمع حياته فيما يقول . وتعبير الثمرة التي ترى قشرتها فترى من لوئها وتشم من

رائحتها إنها ناضرة أو ذائبة . وصحيحة أو معطوبة : ذلك تعبير الفضل كله فيه للقاتل . وهذا تعبير الفضل كله فيه للناظر . وكلاهما تعبير ولكن المسافة بينهما كالمسافة بين الحياة والجمود . والحركة والزكود .

فصاح التلميذ : اليوم سيدي الشيخ عربي وهو يفارق الغرب إلى الشرق ! .. فهلا كان غريباً وهو في بلاد القوم مستريح ؟ .. أم كتب على لإنسان أن يحب ما يفارق ولا يزال ساخناً على ما هو فيه ؟

فصمت الشيخ هنيهة . ثم راح يمضغ بين شفتيه :
يا ماء دجلة ما أراك تلذلي شوقاً كما معرفة النعمان

اطمئن يا بني . ما أنا إلى العرب ولا أنا إلى الشرق . أنا إلى معرفة النعمان فهلا آن الأوان ؟

.. .

فأراد التلميذ أن يطاوله ويعرفه عما ورد على نفسه في تلك اللحظة من الخمين إلى وطنه . وعاد يحاوره وكأنما يتحدثاه ليستثيره ويحببه شاشية السوداء التي هي مقبل عليها :

أفي المعرفة مثل هذه السفينة ومثل هذا المذباغ ومثل هذا المصنوع الجميل ومثل هذه الأعاجيب !

وكان المعري قد ركب السفائن والطائرات . وعرف مطايا الكهرباء ومطايا البخار ، وقال في كل منها قولة عارضة وهو يركبها أو يترجل منها . ألا أنها رحلة العودة قمها خلاصة المقال ونهاية المآل ، فيما رأى من هذه السنوف والأشكال . فقال :

وما حاجة المعرفة إلى سفائن البحار ؟ فيها السيارة ونجوم على فضاءها الطائرة ولو كان فيها بحر لكان فيها مثل هذه السفينة ومثل هذه الموضاء ..

قال التلميذ : وكلها من صنع الغرب الذي ما أدرى أيهم به الأستاذ أم هو مشوق إليه ؟ ..

قال المعري : الآن فهمت ما تريد .. فهلا أبأني يا بني ماذا صنع الغرب من هذه الآلات يوم كما نعيش حياتنا الدنيا في المعرة ؟ لعمرك يا بني ما صنعوها اليوم إلا لأنهم قد احتاجوا إليها . وإلا لأنهم قد بنوا على أساس ما سبقها وهيا أسبأها من صناعات القرون الأولى . يا بني ! لا تهولك المظاهر ولا تعجبك كثرة الأعداد . فمسل مبتدع الشراع والدولاب أخلق من مبتدع البخار والكهرباء . ولعمل القوس والسهم أبرع في اختراعهما من المدافع والقذيفة . ولعلمهم كانوا يعيشون على عهد الشراع خيراً من هذه العيشة ، ولعلمهم كانوا يموتون على عهد القسي والسهام أكرم من هذه البنية ! ولعمل متعة الحالم بالطيران أحب إليه من متعة الطائر بالجنان .

...

قال التلميذ : ولا أحسبني مع هذا مخفناً إذا قلت إنني لست دلالت الدهشة على وجه الأستاذ يوم ركبنا الهواء أول ما ركبناه ..

قال أبو العلاء : تلك دهشة نفنى عن دهشات .

فسأل التلميذ : أحب مولاي أن أفهم من هذا أن الكهرباء والبحار وما صنع الإنسان منهما لا تستحق دهشة الحكيم كما يستحقها الإنسان العاثر في الهواء ؟ .

قال أبو العلاء : لا أحب أن تفهم هذا ولا أكرمه ، ولكني دهشت لمعنى ما رأيت حين رأيته أول مرة . ثم أغتاني ذلك من دهشتي للمصنوعات المكررة والمظاهر المختلفة .. ألحسب أن من يدهش للطيران في المسواه خالق أن يدهش لكل منحرك البخار والكهرباء ؟ أفن شهد الشراع مرة خالق أن يدهش له مرات كلما حركته ربح لخال أو ربح جنوب ؟ ذلك معنى واحد في أنفاظ شئ ، أو ذلك جسد واحد في مختلف أثباب .

وحسبك أن تعلم أن تسخير القوى التي يسمونها بالقوى الطبيعية مستطاع لنزول عنك الدهشة من كل ما يستطاع من هذا الطراز .

فاندفع التلميذ سائلاً : أفكل هذه الآلات إذن ليست بالمبتدع الجديد ؟ أليس فيها ما يستوقف الحفاه من تاريخ بنى الإنسان وما يرى سيدي الأستاذ ؟ ..

فلم ينهله أبو العلاء هنية . وأجاب :
« لا فتح ولا إقبال ! » .

« وربما فتحت هذه الآلات لإنسانك يا بني فتحاً جديداً لو أنه سحر الآلات ثم أطلق نفسه من العقال . أو لو أنه ملك نفسه يوم ملك آلات الأرض والهواء .. ولكنه سحر الآلات المصنوعة ليصبح شيئاً بها ، ثم ازداد في التسخير ليزداد في الشبه . فهو أسير ما صنع ورهين ما ابتدع . فان سميت هذا فتحاً فافقه يفتح عليك .. »

...

ولم تخف لدعة السحر والمرارة في كلمة الشيخ الأخيرة على فطنة تلميذه الملحاح فقال وهو لا يعتمد الإطالة في الحوار :

أحال إنسان اليوم على جميع حالاته أخلق من آباءنا الأولين ! .
فتم أبو العلاء هامساً : أكذلك ؟ .

ثم اتقى يقول : لأمر ما كان الأوائل يروصسون الخيوان وكتم في زمانكم هذا لروصون الجماد : كل " قريب " إلى ما يروض ! وما أحسبكم تفلحون في رياضة حيوان واحد بعد الذى راضه آباؤكم المتقدمون . ولكنكم كلما قاربتم الآلات خرجتم من رياضتها في كل يوم بجديد .

...

وتعمد التلميذ المناوأة الخفية فقال :

ومع هذا يغيظ مولاي الجماد ويسبح الله الذى أعفاه من الطعام والكساء ومن الرحلة والشقاء .

ولم يرفض أبو العلاء هذه المناوأة بل جرى في مجراها فقال متمنيا أو متهاكما على حد سواء :

لو عوفيتكم كما عوفى الجماد !

فأنس التلميذ إلى هذا التهمك الرقيق وراح يسأل :

وهل عوفى الأقدمون ؟

قال أبو العلاء : كلا . على هذا مضيت ومضى السلف ، إلا أنهم صبروا حيث تصجرون . وطلبوا من الدنيا دون ما تطلبون ، فإذا كانوا مثلكم في الشقاء فلقد كانوا أقل منكم في الشكاة ، وإذا كان نصيبهم كنصيبكم من الخير فالذى يطلب الآلات ويحمد المائة عروم ، والذى يطلب العشرة ويحمد الخمسين مجود لا تحسبه من أهل الحرمان .

أقصى المغرب

قاتل الله الحجاز ! ..

كان هذا أول ما فاه به المعرى لتلميذه بعد أن علم سبب الكارثة التي أودت بمئات النفوس من ركاب السفينة . إذ كانا يركبانه ويتحدثان فيها ذلك الحديث المروى في الفصل السابق .. وكانا قد بلغا شواطئ الأندلس حين وقعت الواقعة . وما هي الواقعة ؟ قذيفة أطلقتها على السفينة غواصة من غواصات الثوار فهبطت بها إلى القرار ، ثم نجا المعرى بعصمة الخلود . ونجا تلميذه ببعض اليهود ، وهما الآن على متن سفينة أمريكية تمخر بهما بحر الضلام ، إلى بلاد العم « سام » .

ومال التلميذ إلى الأستاذ يسأله :

أعلمت يا مولاي ما سبب الكارثة ؟

فقال الأستاذ : وما سببها ؟

قال : أنت يا مولاي !

قال : وبحك ! وكيف أكون أنا سببا لإغراق سفينة أنا راكب فيها !

أهي دعوة صائبة ؟ ..

قال التلميذ : بل هو مجاز خائب .. كتبت بعض الصحف أن سفينة من السفن تغارق الشواطئ الأندلسية وعليها ذخيرة عربية نفيسة .. ومن تكون الذخيرة العربية التنبسه غير أبي العلاء ؟ فلما تواترت الأنباء بهذا الحجاز النفيس حسب الثائرون على حكومة الأندلس أن هذه الحكومة تبعت بالتحف العربية الغالية إلى بلاد أجنبية . لتودعها أو ترهنها هناك . فطاردتنا وأغرقتنا لتحرمها هذه الذخيرة ، أو تستولى عليها إذا أدركتها قبل أن تبتلعها اللجة ، ففرقت السفينة وهناك من هلك من جراء أبي لعلاء ..

قال أبو العلاء : قاتل الله المجاز ، بل هو الذى أهلك القوم كما أهلك من قبلهم أما خالية أغرقها المجاز فى بحار من الكلام . وأنا مع ذلك القاتل :

لا تقيّد على لفظى فانى مثل غير نكلمى بالمجاز
نعم وأنا القاتل أيضاً :

بى الدهر مهلا إن ذمت فعالكم فانى بنفسى لا هالة أبداً

...

ثم قال : وإلى أين تمضى سفينتنا الآن بالدخيرة العربية النفيسة ؟ أترانى سأغرقها مرة أخرى ؟

قال التلميذ : بل إلى بر السلامة إن شاء الله .. إلى بلاد العم سام !
قال أبو العلاء : وما عسى أن نشهد هناك غير ما شهدنا ؟ أو نسمع هناك غير ما سمعنا ؟

قال التلميذ : كثيراً يا مولاي .. سنرى قبل كل شيء ملكاً عظيماً على الطريقة الأمريكية ..

فتمهل أبو العلاء قليلاً ثم قال : أرايى سأقضى منك ديون السؤال كلها فى هذه الرحلة . فما هى هذه الطريقة الأمريكية التى نسمع بها فى كل شأن من شؤون هؤلاء الناس ؟ وكيف يكون الملك العظيم ملكاً عظيماً على هذه الطريقة ..

قال التلميذ : بالامتحان والكشف الطبى ، كأنه موظف فى الخدمة اليومية ! .. فهذا الرجل الذى يحكم الدولة العظمى فى الديار الأمريكية قد كان مشلولاً فى كهولته ثم تقدم إلى الشفاء ، فلما أذاع خصومه أنه لا يصلح للحكم عرض نفسه على الأطباء النفاة ليشهدوا له بصحة العقل وصحة الضمير . وقد شهدوا له وجاز الامتحان عند أبناء وطنه فانتخبوه . أليست هذه طريقة أمريكية فى الحكومة كالطرق الأمريكية فى الصناعة والتجارة . وفى كل شأن من شؤون هؤلاء الناس ؟

قال أبو العلاء : وهل أفلح الرجل وصدق الأطباء ؟

فأجاب التلميذ : نعم أفلح غاية ما يستطيع الفلاح . وعالج الشلل فى قومه كما عالج فى جسمه .

فأدركه أبو العلاء متهاثراً وصاح به : غرفة أخرى يابى ! .. ومجاز آخر يوشك أن يرسل بالسفينة إلى القرار .. أنصح يابى ودعنا من المجاز ! ..

...

فاستفحل التلميذ ، ولكنه شغل بالجد فيما هو فيه عن سخيرية الشيخ وارتيابه ، فطفق يقول :

لقد صعد « روزفلت » العظم إلى كرسي الرئاسة والأمة الأمريكية كالجسم الذى له نصف معتق بالدم الغزير ونصف مزوف مشلول لقلة الدم فيه ، فكان كالقلب الذى لا تنظم به دورة الدم فى جميع العروق . وأخذ من النصف الحقن للنصف المشلول ، فدار الدم دورته فى جميع العروق ، وأوشكت الحركة أن تعود إلى جميع الأعضاء .

قال أبو العلاء : أترأه أثار الفقراء على الأغنياء كما صنعوا فى بعض الديار الأوروبية ؟ ..

قال التلميذ : لو صنع ذلك يا مولاي لكان من الفاشلين . فان هذه البلاد على تقدم الصناعة فيها وكثرة الصناع بين أبنائها تعتصم من ثورة الفقراء على الأغنياء بشئ العواصم ، وتحنى منها بكثير من الحصون :
منها يا مولاي أن باب البنى مفتوح لكل فقير مستطيع ، فكل فقير فيها يبنى نفسه بالثروة بعد حين ، ولا يشعر باحتكار الثروة فى أيدي طائفة من الناس تتوارث المراتب وتتوارث الأوال .. فمن هننا نجيب الفقير أنه يثور على نفسه أو يثور على أمه حين يثور على الأغنياء .

ومنها أن الأمريكين قوم ورثوا المغامرة والمراعاة من أجدادهم الأولين

التي غامروا بالهجرة إلى المغرب المجهول منذ قرون ، فن شغلهم بالمهجرة والمراعاة أنهم يحبون الانتخاب وينتظرون السباق فيه بين الأحزاب ، ولا يلجأون من أجل ذلك إلى الإضراب والاعتصاب .

ومنها أن الزراعة عديم توازن الصناعة . وأن الريف بينهم يوازن المدينة وأن ازدحام الحواضر لا يحل القرى من الحارثين الحاصدين . وهؤلاء أقرب إلى جانب الاستقرار منهم إلى جانب الثورة والثوار .

ومنها أن حب الدين فهم قديم . لأن آباءهم الأولين كانوا أساساً متطهين متطهرين نعموا بمعيشة الفساد في أوروبا فهجروها إلى الغرب متعطين متورعين وإنما يثور الإنسان على الأرزاق حين يثور على الأقدار ..

...

قال أبو العلاء : أرحتني من الأستاذية في هذه الرحلة المباركة أراحت الله . غير أنني أراك قد ذكرت لنا ما منع رئيس القوم أن يثور بالفقراء على الأغنياء ولم تذكر لنا ما صنع لعلاج ذلك الجسم المحقون المشلول .. أنراه رجع فيه إلى الأطباء ؟

قال التلميذ : عفواً يا مولاي . أحسب غلطة من غلطات الحداثة في الأستاذية . أو أحسب أسلوباً مبتكراً على الطريقة الأمريكية . ومن كان أساذاً لأبي العلاء فغفر له ما شاء من إهمال وإبطاء .

فاعلم يا مولاي إذن أنه أجزل من الأجرة والوقت للصائمين ، وأكثر من الأرزاق للشيوخ والعاطلين ، فاكثروا من الإنفاق وراحت بهم الأسواق ..

فسأل أبو العلاء : ومن أين جاء بالمسال ؟

قال التلميذ : بعضه من أرباح الأغنياء والفقراء ، وبعضه من الضرائب على رءوس الأموال .

فعاد أبو العلاء سائلاً : وكيف وضوا بما فرض عليهم ؟

قال التلميذ : رضوا كارهين أو كرهوا راضين . فان كثرة البيع والشراء خسر من كساد السلع والخوف الدائم من ثورة العساطلين والمطرودين . والمسأل الذي يذهب ويعود خير من المسأل الذي يفسده الركود ..

فسأل أبو العلاء مرة أخرى : وهب انتحار لم يخرجوا من بضائعهم إلا بمقدار . فأمنوا بذلك مغبة البوار . وقنعوا بأعذار الأسعار . فهل ترون الأرض غلاتها . وهل تحكم الحكومة على نباتها ؟

قال التلميذ بقرط أستاذة العجيب : ما أعجبتك يا مولاي من أستاذ . وما أعجبتك من تلميذ . أنك لتحسن السؤال كما تحسن الجواب . فاعلم إذن يا مولاي أن الأرض قد أخرجت ما شاءت وأن الحكومة قد أنفلتت منه ما شاءت . وهو النصف من جميع الغلات .

قال أبو العلاء : وهل رضى الثارعون ؟

قال التلميذ : رضوا كارهين أو كرهوا راضين . ثم حمدوا المغبة بعد حين ..

...

وانفلتت السفينة في عبابها وأبو العلاء بأول وكأه يحدث نفسه ولا يعنى تلميذه عما يقول :

إن نبح الرجل نصف نجاح لقد نبح في حذيفة الأمر كل النجاح . لما من الصواب أن نسوم إنساناً واحداً كل الصواب . وإن نحصى من حوله كلما غفلت ..

أقصى المشرق

قل إنهم يحبون العجلة ! قل إنهم يكرهون الوقت ! قل إنهم حاثرون فيما يحبون وما يكرهون . أما أنهم يحبون المسال وكفى فإن من يحب المسال للمال لا يتحرك ولا يعيش ، بل يجلس كما يجلس العجوز على القدر المدفونة ، أو كما يجلس الصيرفي على خزنة الذهب . وهؤلاء لا يجلسون حلة العجوز ولا جلسة الصيرفي . ولكنهم يتحركون ويعيشون .

كان ذلك حكم المعري على الأمريكيين أو قل ، حكم المعري للأمريكيين ، وهو خارج من بلادهم ، وكان قد حضر مع تلميذه عبد الاستقلال في عاصمتهم ورأى بلخ القوم وإسرائيلهم في بابل أموالهم لإرجاء أوقانهم والحناءة بذكرياتهم ، فلما برحا الشواطئ الأمريكية من أقصى المغرب واستويا على مكنتهما في السفينة يمرضان ما عبرا وجبرهما ، ونجمان ما تفرق من الوقائع والملاحظات قال التلميذ : هذه أمة تحب المال ولا تعمل إلا للمال . فأبى المعري أن يجازي تلميذه في حكمه . وقال عن القوم ذلك المقال .

ولا ندري لم لم يلب المقام في بلاد الشمس المشرقة لرهن الحبس كأنما كان هناك في حبس أشد عليه من عبيه .

فكان في أرض ، نيبون ، يتأفف ويتعمر من كل شيء ومن غير شيء . ولم يزل مع تلميذه على حذر وامتعاض حتى هجرا أرض نيبون إلى أرض الصين ، وأقاما فيها برهة بين الفتن والثورات والمباحة نارة والمحط نارات ، ولكنهما كانا أقرب شيء إلى راحة اليأس والإقبال على شهود الأحوال ، لأنهما كانا يشهدان في الصين جهداً بسر الناظرين أن يبلغ نعمة . أما الجهد الذي كانا يشهدانه في أرض نيبون فقل أن يكون في نعمة سرور الناظرين . ولا سيما الحكماء .

قال التلميذ يستفز استناده للكلام :

أو ليس القوم في أرض نيبون على جانب من الشجاعة عظيم ؟ .. قال المعري : بل ! إن كنت تعنى شجاعة الغريزة ولا تعنى شجاعة البسة والإرادة ..

قال التلميذ متجاهلاً : وما شجاعة الغريزة وما شجاعة البسة والإرادة بادولاً ؟ !

مأجابه الحكيم غير متأف ولا متبرم : أن الشجاع الحق هو من يعرف الخطر ويخشاه ثم يقبله بعزيمة هي أعظم من الخطر وأعظم من الخشية . أما الشجاع الذي يقتحم الخطر لأنه مدفوع إليه بعادات الأقدمين وسنن الآباء والأجداد فذلك أسير لا يفرق بينه وبين من يقتحم النار مسوقاً إليها بسلسلة من الحديد . ولا فرق بينه وبين الأسير الذي يفقده أسرته في الطبيعة وهو لا يملك الفرار . وقد توجد هذه الشجاعة في الحيوان كما توجد في أبناء آدم ، فهي من أصول لا ارتفاع فيها ولا تعلق لها بالتكليف والضمير ..

...

وقال التلميذ : لو أن الأستاذ قد شهد أسراب الطير وهي تعبر البحر المحيط كل عام فيغرق منها من يغرق ويسلم منها من يسلم ثم تعود إلى الهجرة ولا تخاف الموت ولا تعرف ما هو لحسبته يعني هذه الشجاعة حين يذكر شجاعة الغريزة وشجاعة الحيوان ..

فقال المعري : ما رأيت هذه الأسراب . ولا أحسبنا في حاجة إلى رؤيتها . نعرف أن الشجاعة التي تتعلق بالعادات الموروثة غير الشجاعة التي تتعلق بإرادة المريد ، وكل من شهدنا في أرض نيبون من ياقري بطونهم وبأخفى أنفسهم فأنما هم قلب واحد لا يختلف باختلاف البيئات ولا باختلاف

(١) باحى المسم : بفتح الميم ، أهلكها .

الأفراد . وليست هكذا تكون الصفات التي مرجعها إلى مزية في الإنسان ومزية في الخلق والتكليف .

...

قال التلميذ : أو ليس القوم خيراً من هؤلاء الصيغيين الذين ترضى عنهم ولا تصيق ذرعاً بعشرتهم ومراقبة أحوالهم ؟

قال الممرى : أما إن أردت أنهم أفضلوا حيث أخفق الصيغيون فانت على صواب . وإما أنهم يفلحون هكذا لو كانت أرضهم هي أرض الصين وأحوالهم هي أحوال الصيغيين فذلك هو البعيد .. إن القوم قد أخذوا قديمهم من الصين وأخلوا حديثهم من الغرب ووجدوا في عزلتهم من وراء نهرهم . وعلى خصاصة (١) عيشهم . متسماً من الوقت يأخذون فيه ما يأخذون ويدعون ما يدعون .. فإن أردت الإنصاف فضعهم حيث وضعت الدنيا أبناء الصين وأنت ترى الفرق بين الأمتين !

...

قال التلميذ : يعنى الاستناد الفرق بين المنتصرين والمهزومين ؟

قال الممرى : نعم .. وما يدريك لعل أهل نيبون يخدمون أهل الصين بهذه الهزيمة وهم لا يشعرون ؟ لقد كان هؤلاء المهزومون شتيماً من الخلق فجمعتهم الهزيمة فأصبحوا أمة تنضوى إلى لواء واحد . فإذا بالمنتصرين يخافونهم بعد خمس سنوات يجردوا فيها لانتخاذ الأبهة وتوحدوا أو تكادوا : فكيف يكون شأنهم لو تجردوا لانتخاذ الأبهة متوحدين خمسين سنة لا خمس سنوات ، ومن ذا الذي يهزمهم في المشرق أو المغرب لو نبأ لهم الوقت كما نبأ لأعدائهم المنتصرين ؟ علم الله لولا أن أهل نيبون يخافونهم ويفزعون من غدهم لما عاجلهم بالعدوان ، وما أخلهم مع ذلك آتئين عقبي الأمور ..

...

(١) صفة فقر .

قال التلميذ : من يسمعك يا مولاي يحسبك من دعاة « الكومستاج » أو من غلاة المشيعين لأنجيل « سون ياتسين » .

ولو كان أبناء نيبون قد أساءوا استقبالك لزمت أن في نفسك إثارة من سواء ما استقبلوك . ولكنهم جمعوا لك المسلمين في عاصمتهم واستمعوا لك في معبدهم ومسجدهم . ومحضوك وبجلوك . ومثلتهم ولم يملوك . فأعجب العجب أن تبغضهم هذه البغضاء وأن تألف الصيغيين هذه الألفة ..

فقاطعه الحكيم قائلاً : لعلهم أساءوا من قبل هذه الحفاوة ! .. فابتدره التلميذ مستغرباً : كيف أيها الحكيم ؟ أياي مولاي الكرامة وهو كريم ؟ ! ..

فأجاب الممرى : نعم آياها إذا كانت تجارة وكنت أنا فيها سيلة من السلع المعروضة أو ذريعة من ذرائع الترويح والحديعة .. هؤلاء الناس لم ينشأوا مسجدهم لله ولا للعبادة ولا للمسلمين ولا لأى العلاء . ولكنهم أنشأوه البيع والتجارة . وما نحن بالسلعة الرخيصة في أسواق التجار ..

...

قال التلميذ متسانلاً : وحفاوة المسلمين في الصين ما شأنها وما شأن التجارة والكرامة فيها ؟

قال أبو العلاء . ثلاث حفاوة قريب بقريب . وأظن المحتفين بنا هنا قد كانوا مسلمين منذ قرون !

فصاح التلميذ : كأنما فوجئ بكلام لم يخطر له على بال : نفن يا مولاي ؟ لقد حسبت أن عندك من خبر المسلمين هنا ما ليس عندنا . ولأننا نسمع من تاريخهم لديك فرق ما سمعنا . قال : وما سمعتم ؟

قال : سمعنا حديثاً يشبه الأحاجي والأساطير .. سمعنا أنهم دخلوا الصين قبل زمان مولاى بهمد طويل . وإن قتيبة بن مسلم الباهلى قد غزا أطرافها فى عهد بنى أمية . فكتب إليه ملك الصين أن أبعث إل رجلأ شريفاً يخبرنى عنكم وعن دينكم . فانتخب قتيبة عشرة رجال لم جمال والسن وبأس وعقل وصلاح ، وكان منهم هيرة بن مشمرج الكلأى فقال لهم : إذا دخلتم عليه فاعلموه أنى قد حلفت أنى لا أنصرف حتى أطا بلادهم وأختم ملوكهم وأجى خراجهم ..

فقال لهم ملك الصين : قولوا لصاحبكم ينصرف فأنى قد عرفت قلة أصحابه . وإلا بعث إليكم من يهلككم . قالوا كيف يكون قليل الأصحاب من أول غيلة فى بلادك وآخرها فى متاب الزيتون ؟ وأما تخويفك إيانا بالقتل فان لنا آجالاً إذا حضرت فأكرمها القتل .. لسا نكرهه ولا نخافه . وقد حلف أميرنا ألا ينصرف حتى يطا أرضكم ويختم ملوككم أو تعطوا الجزية ..

قال ملك الصين : فأنأ نخرجه من يمينه ونبعث تراب أرضنا فيطأه . ونبعث إليه بعض أبنائنا فيختمهم ونبعث إليه بحرية يرصاها . ثم أجازهم وبعث بما ذكر إل قتيبة فقبل الجزية وختم العلمان وردهم ووطىء التراب . وأنشد شاعر فى ذلك :

لا عيب فى الوفد الذين بعثهم

للصين أن سلكوا طريق المنهج

كسروا الجفون على القذى خوف الردى

حاشى الكريم هيرة بن مشمرج

أدى رسالتك الى استدعيته

فأناك من حنث الصين بمخرج

فأصغى أبو العلاء ثم قال :

ولا كل هذا سمعنا ! فلا تعجب أن يكون المحدثون أعلم بالزمن القديم

من الأقدمين .

زعيم الصين

جلس الشيخ فى فرضة (١) الصين الكبرى ، شنفهى ، وإلى جانبه تلميذه يترجم له الخطاب الذى ألقاه زعيم الصين الكبير شيانج كاي شيك عن السيد المسيح صلوات الله عليه .

وكان الشيخ - وهو من المؤمنين بأمر الأديان والمشفولين بعقائده ذوى الآراء - قد سمع أن الزعيم الصينى تحول عن عقيدة آباءه وأجداده مع حرص أهل الصين على تراث الآباء والأجداد . وآثر المسيحية كما آثرها من قبله أستاذه وأستاذ الصين الحديثة « سون ياتسن » .. فعجب لهذا التحول واشتاق أن يعرف أسبابه وبواعثه من السياسة أو من خطرات الضائمر وبدوات النفوس . فلما أنبأه تلميذه أن الزعيم يتكلم عن السيد المسيح أصغى إليه وقال : أسمعنى ما يقول ! .

وانطلق التلميذ يترجم ما عدده الزعيم من أسباب حبه المسيح وإيثاره عقائده النصرانية وهى : أن المسيح كان قائد ثورة وطنية نهض بأمتة فأحيأها بعد أن أماتها طمع الرومان وعسف الطغاة من الأبراء والكهان . وأن المسيح كان قائداً لثورة الإصلاح الاجتماعية كما كان قائداً لدعوة النهضة السياسية . فأنهى على الفساد والمفسدين وبشر بالطهارة من الرجس والرجاء فى الخير والاستقامة .. وأن المسيح كان مع دعوته القوية والاجتماعية داعياً إلى الثورة الدينية متمرداً على الشعائر البالية والخرافات الموروثة والرياء الشائع بين أئمة الدين وأحباريه . وأنه قد استطاع ما استطاعه وهو رجل فقير من بيت فقير فى بلد فقير . فلم يكن وارث ألقاب وأموال . ولم يكن سليل أحبار وأقطاب ، ولا كان له مظهر من مظاهر الدراسة الحاوية ولا التعلق الموقر بالنفائيات والقشور . بل كان صاحب قلب كبير يستوحى العناية الربانية ويستلهم الفطرة السليمة .

(١) فرضة : محط السفن فى البحر .

ويروى عن صفحات الكون ولا يروى ما حشيت به الأوراق وامتلأت به قاطر المياكل .. (١) .

قال المعري : أرأيت ؟

قال التلميذ : ماذا أبها الحكيم !

قال إن الرجل قد دان بالمسيحية لأنه قد آتخى بين حياته وحياة المسيح . واعتد نفسه مسيحاً جديداً قام من سلالة الفقراء ومن لا يحسبون بين العلماء واختاره الله لإحياء الصين بما ابتعثه فيها من ثورة قومية على الصفاة والمغربين ومن ثورة اجتماعية فيما سماه « الحياة الجديدة » وأوصى فيه بالتطهر والاستقامة والفساد . ومن ثورة دينية فيما أنكره على الكهان والشيوخ . فهو قد آمن بالمسيح لأنه يؤمن بنفسه ، وهو قد أبغض الرومان لأنه يبغض « المانشو » واليابان وزمرة المتجربين بالأديان :

...

قال التلميذ : أو تأذن أبها الحكيم بإضافة قليلة .

قال المعري : أو كثيرة !

قال التلميذ : لعله آمن بالمسيح لأنه آمن بنفسه وآمن معها بزوجه فسأله المعري : وماذا تعنى !

قال أعنى أن « شيانج كاي شيك » يتيم تكفلت به أمه وأنفقت عليه من سم الحياض (٢) ومن فضل الطوى والفتاة ، ورجت فيه الخير يوم يشر منه الأقربون ونفضوا الأيدي من حاضره ومؤتلف أمره .. وما زال يستمذها العون حتى بعد أن كبر وتولى القيادة وباء بالخزعة وفر إلى اليابان وهو لا يملك قوت أبام . فللمرأة شأن أى شأن في قلبه وعقله . وخلق بمن كان كذلك ثم رزق الزوجة الصالحة الرشيدة أن يركن إليها ويطمئن إلى عطفها وخلوص طوبىها ، وبحسب الصلاح في صلاحها .

(١) قاطر : جمع قطر : وهو وعاء كالثقل من قصب .

(٢) سم الحياض ثقب الابرة .

والدين في دينها والإيمان في إيمانها . فإذا كانت مسيحية فما أقربه مع الأباام أن يتسلل إلى الإيمان بالمسيحية وإذا كانت من أسرة قديرة على المذهب المسيحي فما أولاه أن يعيش في كنف الأسرة وأن يشعر بشعورها ! وقد كانت لأستاذة « سون ياتسين » زوجة مسيحية فحسن على يديها إيمانه بدينها .. وما كانت زوجة الأستاذ العظيم إلا شقيقة زوجة المريد العظيم . فما أعجب هذه الأسرة التي أنجبت بنتين يدين بدينهما زعيان من زعماء الصين كيران . ورجلان من رجال العالم خطيران . عدا من أنجبت من أبناء وبنات كلهم علم من أعلام هذا الجيل في هذه البلاد ؟

...

قال المعري : لا عجب إذن أن يؤمن الرجل بالعقيدة التي توافق إيمانه بنفسه وإيمانه بزوجه وإيمانه بأستاذه . وإيمانه برسالة بلاده .

لعماد التلميذ يسأل : وما رأى الحكيم في رجاء بلاده ؟

قال المعري : إن نقصت مساحات أرضها فقد تزيد قوة نفوسها . وإن تقاربت مسافات وأطرافها فقد تتقارب علاقات سكانها وأواصر أبنائها . وإن غلبوها بالسلاح فقد تغلبهم بالكثرة . وإن طال الزمن على رجائها فما هو بأطول من أزمانها في القنوط والجمود .. هي ناجحة فيما أرجوه ويرجوه لما المنصفون ..

قال التلميذ : تلك بشرى يفرح بها القوم إذا سمعوها فهل من وصاة أوصيهم بها ، وهل من آفة أحلهم غواقيها ؟

قال المعري : آفة القوم أنهم بين الحضرة والبادية . فلا هم جادون في الحضارة ولا هم جادون في البادية . فليجدوها في إحداها فذلك خير من حيرة المتب (١) لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى .

قال التلميذ : لكأنك يا مولاي قد عشت في الصين منذ عشت في الدنيا .. لو رأيت بناءهم لرأيت قصورا في أشكال خيام . وذلك شأن كل بناء في الصين .

(١) المتب : المنقطع عن أصابه في السفر .

زهديان

شأن زهد الهند وزهد نجد

ذاك زهد السامة من الوفر والإغراق والابتذال . وهذا زهد الأكنة
لوجه الضنك والضرورة .

زهد الهند زهد الذي اكتظ من صنوف المائدة حتى عالجها وأعرض
عنها ..

وزهد نجد زهد الذي لم ير المائدة وأف من مللة الحاجة إليها ..

. . .

كان هذا حديث المعري لتلميذه وقد وصلا إلى جدة وقفلا من مدن
الحجاز . بعد طواف طويل في الصين والهند وفارس والعراق .

وكان التلميذ يسأل أستاذه عن شغف النجديين من أتباع عبد الوهاب .
فذكرهم على أنفسهم كل ما يعز عليهم وجوده في الصحراء النجدية .
وهو ينتظر رأى المعري في هذا الشغف ، وقد علم أنه أخذ نفسه بمشاه
أيام الحياة ..

فلما قال المعري إن القوم في الصحراء يزهدون زهد الأكنة في وجه
الضرورة فهم أن حكيم المعرة يستكبر أن يساويه في زهده مئاة وألف ،
وأحب أن يحسب القوم مضطرين غير مخيرين ، أو مسوقين لغير سائقين ،
فارجع إليه سائلا :

أفترى كل محتاج زاهداً فيما يحتاج إليه . ألفاً من الإقرار بالحاجة
والحرمان ؟ ..

قال الشيخ : كلا .. إنما تفعل ذلك الأمم التي لها عزة وأبست لها وفرة .
فهي إذن تفرض على نفسها القناعة وتنفذ عنها شعور الملالة ،

ولو ضمعت ولانت لجمعت على نفسها حرمان الفقر وحرمان الذل
والاستكانة ، فترى أنها محرومة وأنها دون من يستمتعون بالخمر والبلع
والرفاهة . ولا ترى كما يرى هؤلاء النجديون أنهم محرومون وأنهم
مع ذلك خير من المستمعين ! ..

قال التلميذ : لا أخرج . إنني لأسمع المعري الهندي ! .

قال الشيخ : ويحك . هل عدنا إلى قديم هذه الدعوى ؟ فمن ذاك
المعري الذي وأد في الهند أو الهندى الذى ولد في المعرة ؟ .

قال التلميذ : هو الذى قال :

غسلت . مريض العقل والدين فالق

لتسمع أنباء الأمور الصالح

فلا تأكلن ، أخرج المساء ظالما

ولا تبغ قوتا من غريفر (١) الذبائح

ولا يبرأ أثاث أرادت صريحه

لأضفها دون الفواقي الصرائح

ولا تمنعن العاصم وهي غوافل

بما وضعت فالظلم ثمر التبعات

ودع تصرب (٢) التحمل الذى بكرت له

كواسب من أزهار نبت طوائع

فما أحرزته كي يكون لغبرها

ولا جمعه قننى والمناج

محت بدى من كل هذا فابنى

أبنت لثاق قبل شبب المالح

بني زمنى هل تقامون سرالرا

علمت ولكنى بها غير مانع

(١) غريفر : قننى من أهم وغيره .

(٢) تصرب : بلع الماء والراء : الحمل الأبعد الحمل .

سريتم عمل على فهدا اعتدبتكم
بما خسرتمكم صافيات الفسائح
وصاح بكم داعي الضلال فالكلم
أجبتكم على ما خبت كل صانع
مى ما كلفتم من حفاتك دينكم
نكشتم من مخزبات المضائع
فان ترشدوا لا تخضبوا السيف من دم
ولا تلموا الأميال مبر الجرائع
ويمعنى داب الذين تراهبوا
سوى أكلهم كد النفوس الشحائع
وأطيب منهم مطعما في حياته
سماة حلال بين غاد ورائع
فما حبس النفس المسيح تعبدا
ولكن مضى في الأرض مشية شحائع

أليس في بعض هذا ما ينسب الرجل إلى أمة الهند ودين البرهمن ؟
أليس يا سيدي قد رضى أن تهلك ولا تهلك فرؤج من بات الطير
لتناوى بالسليق من لحمه ومائه ، وقلت لهم : استضعفتموه فنداوهم
به . ولر كان شبل أسد لما وصفتموه ..

فحرى السخط في مجراه من قلب الشيخ العظيم .. ومن محراه في
قلبه أن ينقلب هزوا كلما أوشك أن ينفجر غضبا . وقال : لو صح هذا
لما بقيت أمة في الأرض إلا نسيت إليها .. ما لكم لا تصدقون إنها الفاقة
وإنها الرحمة ؟ أبلغ من سوء ظنكم بأنفسكم ألا تفرطوا في أكمة إلا خروما
من غضب معبود ؟ وماذا يضربني من برهما إن غضب وما هو بصاحب
تار ولا بصاحب نيم ؟ وما لي ولدين أناس يؤمنون بقناعة بعض الحيوان
ونحاسة بعض الإنسان ؟ ذلك لا يلمسونه من هبة ووقاية وهذا لا يلمسونه

من كبر وزارة ! ويحك ! أينسب إلى الهند من يحقن السم ؟ فما قولكم
في الحسام وهو من الهند في المعادن والأسماء ؟

ثم ماذا تقولون فيما قلت :

وجدت الشر ينفس كل حين ومن نفع به تحمل الحسام
وليس الخير في وسع الثيال فكيف نسومها مالا يسام ؟

اننى إذن لمن أتباع صاحبكم نبشة ؟ أو من أتباع أصحابه الفاشين ؟
وما لك لا تحب على انكارى لرعم الهند حين أقض ما يقولون :

يقولون إن الجسم ينقل روحه إلى غيره حتى يهبطها العقل
فلا تقبلن ما يخبرونك ضلة إذا لم يؤيد ما أتوك به العقل

وأشفق التلميذ أن تكون غصبة فسكون .. وقد علم أن صاحبه أصعب
ما يكون مراسا إذا سكن بعد غصبة . فيومئذ لا كلام ولا حوار ولا جواب
غير الوجوم والأزدراء ، ولكن إذا انتقل من ثورة إلى ثورة أو تدرج
من سخرية إلى فكاهة .. في استطالة الحديث معه رجاء ..

قال التلميذ : أمن النسبة إلى الهند ينفر مولاي كل هذه الغرة ؟ فن
قال إنه من الفرس كيف يجاب ؟ ومن زعم أنه من المحوس ماذا يسع من
زجر وعقاب ؟ ..

قال المعري : يقال له صدقت وبررت . وإنه مع ذلك لعل دينهم
لأنه يعجب منهم إذ يقول :

عجبت لكسرى وأشاعه وغسل الوجوه بيول البر

فن التقي أن ينكر الإنسان ما به يدين . وأن يكون نكرانه علامة
اليقين .. أليس كذلك ؟

وتلطف التلميذ اللبق في نقل الحديث إلى فارس والفرس وما كان فيه وما يكون . وتذاكرا ما مر بهما ومرا به في تلك البلاد . فسرى عن الشيخ بعض ما اعتراه من غضب وامتصاص للنسبة إلى البراهمة والمجوس . وضحك الشيخ وتلميذه كثيراً حين ذكرا ذلك الكرسي الذي كان يجلس عليه بعض الشاهات - عند قضاء الحاجة - فيعزف بالنشيد الملكي تحية للجالس عليه ! وقال الشيخ : حسنا صنع عاهل القوس الجديد أعانه الله على ما تصدى له من خير وتهذيب .. إنه أراح أمته من هذه المراسم وهذه التفتيشات التي أفسدت عليهم ما أفسدت . ونسوا كل شيء ليذكروها وحدها حتى حين ينسى الإنسان كل تفخيم وتجبيل .. إن المراسم آفة هذه الأمة الطيبة الرضوية . فلا أدب لهم ولا علم ولا دين ولا شريعة إلا وفيها آية المراسم ظاهرة ، وتحية المراسم ناطقة ، ودبوان المراسم معقود ومشهود . ولئن خلصوا منها لقد خلصوا من قيود تحبس الرؤوس قبل الأعضاء والأقدام ..

• • •

فقال التلميذ : وماذا بقي منها فيستحب لهم الخلاص منه ؟

قال المعري إنهم يقتدون بالأمم الكبرى في أزيائها وشعائرها . وأن أعرف ما نخاف عليهم أن يحسبوا القوة والمنعة في هذه الأزياء وفي هذه الشعائر ، فيتقيدوا بها من جديد ويخلصوا من تقليد إلى تقليد ، ولئن هداهم عاهلهم السديد في مساعهم المحييد ، لقد بلغ بهم ما لم يبلغه الأكاسرة ولا الهرازمة الأولون ..

في مصر

على مقربة من سيناء قال حكيم العربية لتلميذه كأنما هو الذي يقوده : هذه هي البادية ! ..

قال التلميذ : أو قد عرفتها ؟ قال : كيف لا أعرفها .. وإن الشمس لتتغير وما غير الله البصادة منذ خلقها . ولا يغيرها حتى بطورها مع الأرض أو السماء ! ..

قال التلميذ : فعلى اليمين بيت المقدس وعلى الشمال أرض مصر . فأيهما يؤثر الأستاذ بالزيارة ؟ ..

وكان شيخنا قد سمع شيئاً عن مناعب فلسطين والشرق العربي . وسمع شيئاً عن عجائب مصر .

فأنشد :

أما الحجاز فما يرجى المقام به لأنه بالحرار^(١) الخمس محتجز
والشام فيه وقود الحرب مشتعل يشبه القوم شدد منهم الحجز^(٢)
وبالعراق وميض يستهل دما وعارض بلقساء الشر يرتجز

ثم قال : لا أدخل أرضاً يجلي عنها العرب . فلندخل مصر آمين .

قال التلميذ : إن أبيت أن تدخل أرضاً يجلي العرب عنها فهلا بعث إليهم بنحية أو نصيحة ! ..

قال الشيخ : النصيحة لهم أن يصادلوا بالقوة والمسال من يغلوهم بالقوة والمسال .. فهم هم الظافرون ، قصر الزمان أو طال ..

وسأله التلميذ : ومن أين لهم بقوة ومال ؟

(١) الحرار : جمع حرة بكر الحاء : الأرض ذات الصفور السوداء .

(٢) الحجز : جمع حجرة بهم الحاء وهي مقعد الأزار

قال : من العزم والإباء .. من أبي ما هو فيه استمد العزم من إباته .
وجاءته القوة والثروة إلى موطنه قدميه .

قال التلميذ : وهبهم بلغوا منها جهد الطاقة أفيلغون منها يا مولاي
مبلغ الدول الكبار ؟ ..

فأجابته الشيخ : بل يبلغون منها ما يتعب الدول الكبار . وحسبهم أن
يتعبوها فيستريحوا . أو يرجعوا إلى حال خير من قبول الصباغ والفناء .

ودخل مصر فقضيا أياماً بين ترحيب وتسلم . وبين ربوع وآثار .
وسأل الشيخ بلسان أبي الطيب الذي كان يتعصب له ويستعيد شواهد :
أين الذي الهرمان من بنيانته ما قومه ؟ ما يومه ؟ ما المصراع ؟
ثم أنشد :

تخلف الآثار عن أصحابها حيناً ويدركها الفناء فتتبع
ثم قال : أشهد وأنا بينهما أنهما لم يقنيا ولم يتبعاً .. فما أعظم يقين
بأبي الطيب بفعل الزمن ودولة الفناء ..

قال التلميذ : ما هو بأعظم يقيناً بالزمن وفعله والفناء ودولته
من القائل :

زحل أشرف الكواكب داراً من لقاء الردى على ميعاد
ولنار المريخ من حداثان الدهر مطفئ وإن علت في انقباد
فرد عليه الشيخ خاشعاً وهو يجمع بين شفتيه : نعم . وتهون الأعمار
عند ذلك وتهون الخلود ..

واستمر التلميذ في نغمته الأولى فقال : هذا لحد أبي أن يصير
لحداً مراراً . وأبي أن يضحك من تراحم الأضداد .

قال الشيخ وهو في جمجمته الأولى : لقد دخله الأحياء فأبى أن يكون

لحداً مرة بله المرات ، وضحك من صاحبه الأول قبل أن يضحك من
أضداده .. وأبى والله لأسأل عن هذا الطود المشيد كما سألت عن الورقاء :

أبكت تلکم الحسامة أم غداً بت على فرع غصنها الميساد
فأدري هنا أهو عنوان غلبة الموت أم عنوان غلبة الحياة .. إنما هو
على الحالين عنوان شقاء الإنسان ، وعيب الطفيلان .

وعاود الشيخ وجومه على أشد ما يكون بين أطلال الفراغة ومروج
وادی النيل ، وأنه ليروض نفسه على إقامة أيام إذ حانت له الطريقة التي
سماها أعجب العجائب في بلاد العجائب ، فانتوى الهجرة من قريب .

كان ذلك في ناحية من الصحراء وقد تردد عليه رجل من كتاب الصحف
فسأل الشيخ تلميذه : ماذا عساه يريد ؟ .

قال التلميذ : أنه يعتذر ..

قال : وم الاعتذار ؟ ..

قال : ان الرجل لكاتب المقال الذي أطلعتك عليه تفكهة وعبرة يوم
وصلنا إلى هذه الديار .

قال : تعنى الرجل الذي نعى على حكومة هذا البلد إنها احتفت بمن
سماه إمام الملحدين وشيخ الكافرين ، وإنها من أجل ذلك خلقة باغضاب
المسلمين والمروق من حظيرة الدين .

قال التلميذ : هو بعينه .

فعجب الشيخ وسأل : وما اعتذاره اليوم ؟ .

قال : اعتذاره أنه سيلقى عليك المقال الذي أعده للإنهاء على الحكومة
لو أنها قصرت في لقائك ، وأحجبت عن استقبالك . فهم خصوم الحكومة
ينعون عليها كل ما تفعل ويقدمون في كل ما تنوي . فان هي أكرمت
(رجسة أبي الدلاء)

وفادتك قالوا ما قد علمت .. وإن هي قصرت في حفاظتها فهم قائلون
ماستسمعه الآن ..

قال المعري : أحسبهم كانوا قائلين يومئذ إن هذه الحكومة تنكرت
للحرب وآداب العرب ، وقطعت ما بينها وبين لغسة القرآن من سبب .
وباعت نفسها للفرجة . وحادثت عن سواء الحجة ، وغير ذلك مما ينظم
في هذا النظام ! ..

قال التلميذ : أحسنت يا مولاي .. إنك اليوم لفي طليعة المرشحين
للكتابة في الصحف السيارة ، وعلى رأس المتقدمين للخوض في غمار
السياسة المصرية .. هكذا كتبوا ، وعلى هذا دأبوا . ولهذا أقبلوا
يمتلئون وفي هذه اللجاجة تنقضي عليهم الأيام والسنون .

فردد المعري قوله القديم :

ماخص مصرا وبأ وحدها بل كائن في كل أرض وبأ ...

لكن هذا هو الطاعون الذي يحمد عنده كل وباء

إلى المعرة يابني فقد ختمنا المطاف ، وشبعنا من المضيفين والأضياف .
وكان « كاتب هذه الأسطر » في محضر الفيلسوف فقال : إن أسوان
تدعوك أن تجعل الأوبة من طريق الجنوب . وإن طالت المسالك واختلفت
الدروب ..

فدارت على لسان الفيلسوف نوبة الاستشهاد بكلامه القديم ، وأجابه
بييت من لزومياته يذكر فيه أسوان إذ يقول :

أسوان أنت لأن الركب نيتهم أسوان .. أي عذاب دون عذاب ؟!

لقد زرتك فيها قبل اليوم يابني . فاحتسب دعوة اليوم في تلك
الزيارات . وغلطنا في عالم الفكر من هذه المهاملات والمصانعات . أما

دعوتني فيها وأنت يافع تحسب أنك تكره الحياة لأنك مملوء بالسيدين
بالحياة ؟ أما دعوتني فيها وأنت فتى تنور وتحسب أنني معك حين تنور ؟
أما دعوتني فيها وأنت كهمل تصالح الدنيا لأنك أنفت من غاصمة الدنيا ؟
أما دعوتني فيها وأنت تزعم أنك تناقضني بانكار الأحران وما أنكرتهم
إلا ترفعاً عن الشعور بالحرمان ؟ إنك دعوتني كثيراً وإني أجبتك كثيراً .
وإني لألثالك حيث أنت غير لقاء . وإنك لتلقاني وتسمعني حين تشاء .

نشيد وداع

بُناة ضربي طال بالصخر إبطاء
 فهل وطأوه أو تعداه إبطاء ؟
 وهل لأن أو يأتي على اللبن نخوة ؟
 وهل رقطوه أو سرت فيه رقطاء ؟
 عرفت انتظار الموت . أما منية
 وطول انتظار . فهو لتفقد أخطاء
 " متى يتفنى الوقت والله قادر ،
 فتغطي الدنيا وتجد أخطاء (١)
 أراي لديكم كالمعري معرضاً
 لمن شاء والركبان حولي أخطاء (٢)
 ألقم للذكرى المآذب فاستوى
 بمادة التسيان منع وإعطاء
 وما نضجت تلك الثمار لما بالكم
 دعونم ولم تخرج من الزرع أخطاء (٣)
 ذروني فلي فيكم كتاب وسيرة
 جديده صباها وهي في الدهر شحطاء

(١) أخطاء : بمعنى غطاء .
 (٢) الفرس الخطاء : التي تصرب الأرض برجلها وهو من علامات الخرج أو الفقد .
 (٣) أخرج الزرع شطاء : أي ظهر فيه الورد والدروع .

إذا كان يوي بينكم فهي عندهم .
 وعندى لكم شكر لراعيه طاطاء (١)
 وهذا وداعي لازم غير لازم (٢)
 إذا غاب بعض الشعر عني وإبطاء (٣)
 لعل أراكم بعد ألف وبينكم
 ألوف لم ذكرى مني الحمد عيطاء (٤)

عن المعري
 عباس محمود العقاد

(١) أي موطأ متفاني .
 (٢) من لزوم مالا يلزم .
 (٣) تكرار القافية .
 (٤) طويلة الجيد .

فهرس

صفحة	
٣	علامات الخلود
٩	تمهيد
١١	وفد
١٧	صاحب الجلالة المعري
٢٣	عالم السريرة
٣١	أبو العلاء هو أبو العلاء
٣٧	بساط الريح
٤١	حكم السيف
٤٥	المشترقون
٥٠	مع المشيعين
٥٦	في بلاد الشمال
٦٠	جر الذبول
٦٤	المرأة
٦٩	الحكميان
٧٤	حكم وحكمة
٧٨	خليفة داني
٨٢	لعب البقرية
٨٨	الاختراع
٩٣	أقصى المغرب
٩٨	أقصى المشرق
١٠٣	زعم الصين
١٠٦	زهدان
١١١	في مصر
١١٦	نشد وداع